الثقافة

AL-THAQAFA

مركز الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بالمنيرة ، القاهرة — تليفون رقم ٤٩٩٩٢

العدد الثامن عشر | الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٨ — ٢ مايو سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهرس

محمد الرسول المصلح

كم من عظماء الرجال زالت عظمتهم أو قلت قيمتهم بمرور الزمان عليهم ، ونقده الناس نقداً صحيحاً لأعمالهم ، ووزنهم بموازين عصرهم . ولكن محمداً (ص) ظلت قيمته قيمته ، وعظمته عظمته ، مهما اختلفت العصور ، وتغيرت الموازين ؛ بل إن الزمن ليزيد عظمته وضوحاً ، والموازين الأخلاقية الحديثة تزيد مكانته رفعة .

وكم حاول خصومه في مختلف العصور أن ينتقصوا من قدره بشتى الأساليب ، ومختلف الأكاذيب ، فنالوا من أنفسهم ولم ينالوا منه ، وحرموا لذة الحق وذوق الحق .

وكم لمحمد من نواحي عظمة ومظاهر سمو ، ولكن لعل أروعها جميعاً ما جاء به من دعوة ، وما قام به من إصلاح .

لقد نشأ في جو خانق ، وبيئة مضطربة فاسدة ، وحالة اجتماعية تبعث اليأس ؛ فجعل من الشر خيراً ، ومن الاضطراب أمناً ، ومن الفساد صلاحاً ؛ فالعرب قد وحدت

نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام — الذي بني ليعبد فيه الله — عبادة لثلاثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصر منهم أو تهوّد كان قد تنصر أو تهوّد بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسمتها المذاهب والشيع ، ودخل على تعاليمها الأولى كثير من البدع ، لم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانية ، والحنفاء الذين ظهروا قبيل الإسلام كان صوتهم ضعيفاً خافتاً ، عجزوا — كما عجزت اليهودية والنصرانية — أن يغيروا شيئاً من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حياتهم سلسلة سلب ونهب ، كل قبيلة وحدة ، بل كل فرع قبيلة وحدة ، وكل قبيلة في عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ، ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى « أمة » ، ولا يفهمون معنى لحياة سياسية أو مدنية ، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت إن أحداً من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ما وجد محمد من العرب ، وأن أحداً منهم لم ينجح في إصلاح أمته ما نجح محمد في إصلاح العرب وغير العرب ، ما عدوت الصواب .

ففي عشرين عاماً استطاع بتأييد الله أن يغير كل هذه الفوضى ، وأن يغير كل هذه المظاهر ، وفوق ذلك أن يغير هذا الروح ، فجعل من القبائل وأشباه القبائل أمة عربية واحدة ، ورد الأصنام إلى أنها كتل في الأرض ، وساوى بينها وبين أخواتها من الحجارة ، وحوّل عبادتهم إلى إله واحد فوق الأرض وفوق السماء ، وفوق المادة كلها ، هو وحده الصمد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، فرفع من نفوسهم المرتبطة بالحجارة والمتصلة بالأرض ، تحلق فوق السماء ، وتنظر إلى العالم كله نظرة سامية عميقة ، وتحتقر عرض الدنيا في سبيل نصرة الحق .

وجد نصف العرب (وهو المرأة) ضعيفاً فقواه ، مسلوب الحق فرد إليه حقه ، فهي كالرجل في العبادات ، وهي كالرجل في المعاملات ، ولها كالرجل كل الحقوق المدنية ، فأكمل بذلك ترقية النصف الآخر وجعلها أقدر على إصلاح الجيل الجديد بما نالت من حرية جديدة .

آمن الرجال والنساء بتعاليم الإسلام الجديدة يعتنقونها ويذودون عنها ، ويرون واجباً عليهم نشرها وتضحية النفس والمال في سبيلها ، تحمسوا للدين ولكن لا كما يتحمس الرهبان في الصوامع ، إذ هجروا دنياهم لدينهم ، بل لم يمنعهم إخلاصهم لدينهم من تحسين دنياهم ، فهم يزرعون ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، يتاجرون ويعملون ويملكون المال ويزكون ، ويعملون للدنيا كأنهم يعيشون أبداً ويعملون للآخرة كأنهم يموتون غداً ، يبلغون الذروة في عالم الروح ، ويبلغون القمة في عالم المادة ؛ ففي عالم المادة ورثوا الفرس والروم علومهم وأزالوا ملكهم ، وفي عالم الروح غلبوا الأمم الأخرى في روحانيتهم سبقوهم ، فلا وثنية ولا عبادة لصور ولا عبادة لكهان ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا إله إلا الله .

* * *

فإن فاخر المصلحون بتعاليمهم وبدعوتهم فمحمد (ص) يحق له أن يفاخر بذلك كله وبالنتائج العملية التي وصل إليها ، فليس رسم الخطط وحده كافياً في التباهي ، إنما المباهاة الحقة في التنفيذ والنجاح في التنفيذ ، وإلا فكل رجل فوق المستوى المألوف يستطيع أن يحلم بعالم خير من هذا العالم ويرسم لهذا العالم السعيد صورة الخلابة البديعة ، ولكن المصلح الحق من يضع الخطط اللازمة للحاضر والمستقبل ، ثم يضع الخطط الصالحة لتنفيذ ذلك كله ، ثم يصل من ذلك كله إلى الغاية . ولقد أظهر النبي (محمد) في ذلك كله البراعة الفائقة ، فلم يكن حالماً ولكنه فكر ثم وصل ثم عمل .

ثم أجهد نفسه في التفكير وأجهد روحه في البحث ، وكانت عزلته في غار حراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيم كان يفكر ويطيل تفكيره ؟ في ضوء ما عليه العالم ، وفي ضوء ما يعتقد العرب وغير العرب ، وفي ضوء الحالة الاجتماعية في العالم الذي رآه في جزيرة العرب وفي العالم الذي رآه في الشام . قد يكون هذا الفساد واضحاً ، ولكن ما هو الحق وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ، ثم انقشع وكان الوحي إيذاناً بالهداية .

ثم كان له بعد ذلك من الله قوة في التنفيذ لا يبارى ، يدعو إلى الحق ولا يخشى ، ويعذب من أجل الدعوة فينال العذاب من جسمه ولا ينال من نفسه ، فهو يضرب وهو يُرمى بالحجارة وهو يسيل دمه ، ولكن العذاب مع ذلك كله يزيد في دعوته قوة وفي نفسه عزيمة .

ثم هو لا ييأس أبداً فإذا فشلت خطة وضع خطة ، فإذا لم تنجح خطة الطائف فليدع غير الطائف من الأوس والخزرج حتى يكتب له النجاح .

ثم هو شجاع في كل ما تطلبه الدعوة ، يواجه الأحداث وهو مطمئن ، ويتفرق عنه أهله فلا يجزع ، وتبدو طلائع الهزيمة في وقعة أحد ، وتكسر رباعيته ويشج في وجهه وتكلم شفته ويسيل الدم على خديه ويتكشف المسلمون ، ويصيب فيهم العدو ، ويقتل عمه حمزة ، وهو هو في ثباته ، وهو هو في إيمانه ، وهو هو في أمله ، جميع الفؤاد رابط الجأش .

فلما أن أمكنه الله من عدوه لم يذكر دماءه ، ولم يذكر أفاعيل خصومه ، ولم يذكر قتالهم لأهله وأصحابه ، إنما ذكر دعوته وذكر خير السبل في الوصول إلى تحقيقها ، وذكر ما يجب أن يفعل لإنجاحها ؛ فلما فتح مكة كان همه أن يدخل الكعبة ومعه بلال فيؤذن فيها ، ويكسر الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » وهذا هو ما يذكره . أما الناس فليعلموا موضع نقمته وخير أن يستجلبهم لدعوته بعفوه ، فيقول : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فأسرهم بعفوه ، وردهم إلى قوة فعالة في سبيل دعوته ؛ وهكذا لم نجد مثلاً يجمع بين القوة والرحمة ، والصلابة والمغفرة ، والإصرار والاعتدال الراجح كما رأينا في هذه الفعال .

* * *

تعاليمه الإصلاحية إنسانية عامة ، أما شخصه فإنسان يخضع لكل قوانين الإنسان من شباب وشيخوخة وموت وغير ذلك .

وسبب خلود تعاليمه أنها إنسانية عامة ، لم تخضع في جوهرها وأسسها الأولى لظروف الزمان ولا لظروف المكان ، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ، ولا إلى الروم وحدهم ، ولا إلى الناس في زمنه ، إنما نظر فيها إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فبثت ما في الإنسانية ، ولم يفرّق فيها بين عربي وأعجمي ، ولم يميز فيها غني من فقير ، ولا أبيض البشرة من أسودها ، ولا طبقة في الشعوب من طبقة ، ولا شرقي من غربي ، ولم يكن فيها نعرة جنسية ، ولا نغمة أرستقراطية ، ولكن فيها أن الإنسان أخو الإنسان ، والأبيض أخو الأسود ، والرجل أخو المرأة ، والغني أخو الفقير ، والملك أخو الرعية ، وكانت كل رسالته وكل أقواله ترمي إلى غاية واحدة : ألا يفر الإنسان من هذا العالم بالعزلة ، ولكن يكون قوة فعالة لاستئصال الشر وفعل الخير ، وتمام الانسجام بينه وبين من يعيش معهم ، وتحقيق العدل والإحسان له ولهم ، وأن يعيش لخير نفسه وخير من معه وخير العالم ؛ يجب أن تكسر الحدود الجغرافية والحدود الصناعية والفوارق الجنسية ، وأن يعيش العالم وحدة تحكمه قوانين عادلة ، وتسوده تعاليم حقة ، ويعتنق أهله عقائد صحيحة أساسها كلها الخير العام للإنسانية ، وهي إن اختلفت في الفروع

بحسب الأقاليم وبحسب البيئة الطبيعية والاجتماعية ، فلن تختلف في الأصول التي تربط الإنسان بالله خير رباط ، وتربط الإنسان بالإنسان خير رباط ، وتخضع لحكم العقل مجرداً عن التحريف والتضليل ، ولحكم العواطف سليمة صحيحة قوية .

فأي شيء من هذه التعاليم لا يبقى ما بقي الإنسان ؟ بل أي شيء من هذه التعاليم لا تعلو قيمته كلما علا الإنسان في قيمته ورقي في إدراكه ؟

لقد كان كل نبي قبله يحمل مصباحاً لقومه ، فجاء محمد يحمل مصباحاً للعالم .

آمن محمد بالأنبياء جميعاً وبرسالاتهم جميعاً ، وبإصلاحهم جميعاً ، ودعا من يؤمن به أن يؤمن بهم ، وقرر أن الحق في كل زمان واحد ، قد دعا إليه كل نبي قبله ، و[illegible] دعوتهم ، مصحح لما حرف من رسالتهم ، مطهر لما لحق تعاليمهم من الشوائب ، مصلح لما أدخله الأتباع من الفساد ، متقدم في رسالته تقدم الإنسان في عقليته ، مبعوث إلى الكافة ، مرسل إلى العالمين .

* * *

فإذن احتفل اليوم بمولده أربعمائة مليون مسلم على وجه البسيطة ، لا يفرق بينهم جنس ولا لغة ولا لون ، فيحق لهم أن يباهوا به ويعظموه ويمجدوه ، وأرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي يحق لهم أيضاً أن يباهوا أنفسهم ، وأن يتمدحوا بأنهم خير أتباع لخير مصلح ، ويذكروا قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

أحمد أمين

على هامش السيرة :

القلب الرحيم

للدكتور طه حسين بك

لم يبسم الأمير لحنظلة بن عمير الحرامي حين أدخل عليه ، ولم ينبسط له ذلك الوجه الذي تعود زواره أن يروه مشرقاً سمحاً ، بل لم ينظر إليه ، ولم يرفع رأسه عن ذلك الكتاب الذي كان ينظر فيه ، وإنما تلقى من الشيخ تحيته وردها عليه ثقيلا ، وكأنه لبس متكلفة منه ، ولم يأذن له بالجلوس ، وظل الشيخ قائماً حائراً ، ينظر حيناً ، ثم ينظر عن يمين وشمال حيناً آخر ، والناس من حول الأمير ومن حوله ساهمون واجمون ، ينكرون في أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً بين يدي الأمير .

وكان للشيخ في نفوس الناس [illegible] ومنزلة رفيعة ، عرفوا ورعه وكرم [illegible] الصغار ، وحسن بلائه في المشاهد ، وحسن رعايته لحرمات الدين ، وأكبروا منزلته من قومه ، ونباهة شأنه فيهم ، وحسن صنيعه إليهم . وكثير منهم كانوا يكبرون عظم ثروته ، وسعة ذات يده ، وكلهم كان يرى على كل حال أن الأمير يلقاه بما لم يتعود أن يلقاه به من البشر والإيناس ، وكلهم كان يود لو استطاع أن ينبه الأمير إلى مكان الشيخ ، ولكنه كان يشفق أن يتجاوز حقه ويعدو حده ويتدخل في الأمير فيما لا يعنيه . وقد طال إطراق الأمير وصمته ، وطال وقوف الشيخ وحيرته ، ثم تحول الشيخ عن موقفه قليلا وسلم على الأمير سلام المنصرف ، فرفع الأمير إليه وجهاً عابساً وهو يقول : إلى أين يا حنظلة ؟ قال الشيخ : إلى حيث يلقاني الناس بغير ما لقيتني به أيها الأمير . قال الأمير : لا بأس عليك ، اجلس فإن لي معك شأناً . قال الشيخ : لقد ظننت أن لك معي شأناً ؛ ولكني علمت أيضاً أن مثلي لا يليق بمثل ما لقيتني به ، فإن كنت قد دعوتني لخصومة أو ملامة ، فقد كنت حرياً أن تقدم بين يدي خصومتك أو ملامتك بخير مما قدمت ، أو تكلف غيرك أن يدعوني كما يدعى المتهم الظنين . قال الأمير : اجلس فليس عليك من بأس ، إني لم أدعك لخصومة ولا ملامة ، وإنما دعوتك لبعض الأمر ، ولعل [illegible] بيني وبينك ألا يعدو العتب عليك والنصح لك ، [illegible] الشيخ : وما ذاك ؟ قال الأمير : خذ مكانك ، فإنا [illegible] مما قيل .

[illegible] متلطفاً حتى جلس وهو لا يكاد [illegible] على وجهه وفي عينيه من آيات الغيظ . وأحس جلساء الأمير أن الأمير يريد الخلوة إلى حنظلة ، فجعلوا ينصرفون متتابعين ، حتى لم يبق في مجلس الأمير أحد إلا هذا الشيخ . هنالك نظر الأمير إلى حنظلة نظرة طويلة فيها حب ورفق ، وفيها حزم وعزم أيضاً . ثم قال وهو يبتسم متكلفاً : إن لبيت مال المسلمين عندك ثأراً ما أظنه يستطيع أن يدركه منك مهما تضخم ثروتك ، ومهما تغل عليك هذه الأرض التي تملكها ، ومهما يكسب لك هذا العدد العظيم من الرقيق الذين تصرفهم في هذه الصناعات المختلفة الرابحة .

قال حنظلة : أي شيء تريد أيها الأمير ، فإني لا أفهم عنك منذ اليوم . قال الأمير : إنك قد رزأت بيت المال رزءاً ما أخلق ثروتك أن تستطيع أن تنهض به . قال حنظلة : فإنك لم تولني عملا من أعمالك ، ولم أؤتمن على ما تحتوي خزائنك من مال ، وما أعرف أن بيني وبين السلطان سبباً

من أسباب التجارة أو الالتزام، فكيف رزأت بيت المال وبم رزأته؟ قال الأمير: ما هذا الحديث الذي يأتي عنك؟ أم ترتفع إليّ الأنباء بأنك قد زرت قرية عامرة من قرى الزاب تريد أن تتعهد فيها بعض أرضك، فلم تنصرف عنها حتى أسلم أهلها جميعاً، ولم يبق منهم معاهد يؤدي إلى بيت المال درهماً أو ديناراً؟! أفتظن أنك لم ترزأ بذلك بيت مال المسلمين؟ فإذا مضيت على سيرتك هذه، وإذا تأثرك جماعة أمثالك، فجعلوا كلما زاروا قرية من قرى الزاب حولوا أهلها إلى الإسلام وصرفوا عن بيت المال مورداً من موارده، فإلام نحن صائرون؟ ومن أين ننفق على هذه المرافق؟ ومن أين نرزق أهل الديوان؟ ونوفر على الجند أعطياتهم؟ وكيف نحمل إلى دمشق ما تريد دمشق أن نحمل إليها من المال؟ فلم يستطع الشيخ أن يملك نفسه ولا أن يحتفظ بما ينبغي من الوقار لنفسه أولاً وللمجلس [illegible] الأمير بعد ذلك، ولكنه اندفع [illegible] لا يحتفظ فيه ولا اتزان، وجعل الأمير [illegible] لا يدري أيغضب أم يرضى. فلما سكنت الضحكات في [illegible] الشيخ قال في صوت مضطرب بعض الشيء: أضحكك الله أيها الأمير وغفر لك! ما كنت أظن أن الله قد بعثنا جباة للمال نملأ به خزائنك ونحمله إلى دمشق، وإنما علمت أن الله قد بعثنا دعاة إليه، وهداة إلى الحق، ومبشرين برحمة الله، ومخوفين من نقمته، ما يعنينا بعد ذلك أن تمتلئ خزائنكم بالمال أو تصفر منه. قال الأمير وهو يبتسم ويكظم غيظاً يريد أن ينفجر: حسبك يا حنظلة، هذا كلام كان يقال منذ أذاعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الناس وكتبه إلى الولاة والعمال، وقد قبلته أنت وغيرك من أمثالك ومضيتم في إنفاذه جادين مجاهدين، ولكن عمر رحمه الله قضى ولم يطل به العهد.

وعادت أمور الناس إلى من تعلم من الخلفاء والأمراء، وعادت سياسة الناس سيرتها الأولى، فلا بد من أن ننفق على المرافق، ولا بد من أن نرزق الجند، ولا بد من أن نحمل إلى بني مروان في كل عام ما ينهض بأعطياتهم وأداتها لأعباء القتال. قال حنظلة: فإن أمر هذا كله لا يعنيني، وإنما يعني أمير المؤمنين وولاته وعماله والمدبرين لأمواله، فأما أنا فرجل من المسلمين أتيح له أن يدعو الناس إلى الحق، فاستجابوا له وهداهم الله به إلى دينه، فلا عليّ أن ينصرف عن بيت المال بعض موارده. وإن كان لك أيها الأمير أو لأمير المؤمنين أرب فيما أملك من ثروة فما أستطيع أن أدفعكم عنه، وما أريد أن أفعل، فخذا منه ما شئتما الآن، وخذاه كله إن أحببتما، فإن المال يغدو ويروح، وما أكره أن أشتري هدى هؤلاء الناس بمال مهما يكثر، وما أكره أن أعين بيت المال على بعض أعبائه بثروة مهما تضخم، فإني أرى ذلك صدقة، وأعلم أن الله لا يضيع أجر المتصدقين. قال الأمير وقد عاد إليه هدوءه، واطمأن في مجلسه، وأشرقت في وجهه ابتسامة حلوة عرفها حنظلة، [illegible] الصديق، وعاد إلى صديقه بحديث [illegible] الأمير: ليس عليك ولا على مالك [illegible] أريد أن تقصد في هذا الجهد وترفق في هذه الدعوة. قال حنظلة: فإني لم أبذل جهداً ولم أتشدد في دعوة، ولوددت لو أستطيع أن أبذل في ذلك الجهد، وأن أبلغ من هداية الناس إلى الحق ما أريد، فما أعرف أن شيئاً يؤذي نفسي كما يؤذيها منظر هؤلاء المعاهدين وهم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون. وإني لأرى في دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه إنقاذاً لنفوسهم وإنقاذاً لمروءتهم، وإشعاراً لهم بهذه الحرية التي نستمتع بها وهم محرومون منها محرومون مما تكفل لأصحابها من الشرف والكرامة وكمال الرجولة. ألم تضع نفسك قط أيها الأمير موضع واحد من هؤلاء الناس الذين يشترون أمنهم على أنفسهم ودينهم بالمال يؤدونه إلينا صاغرين؟ قال الأمير: ولم تريد أن أضع نفسي موضع هؤلاء الناس، وقد منّ الله علينا بالعروبة والإسلام فجنبنا هذا الصغار؟ قال حنظلة: فإن الله قد أمرنا أن نسوي بين الناس وبين أنفسنا، وأن

تدعوهم إلى الإسلام لترفع عنهم هذا الأمر ، ولتردهم إلى مشاركتنا في هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا . قال الأمير : ألم تنبئني أنك لم تبذل فيما صنعت جهداً ، ولم تحتمل فيه مشقة ولا عنفاً ؟ قال حنظلة : بلى ، ولو قد علمت كيف كان اهتداء هؤلاء الناس إلى الحق واستجابتهم لدعوة الله ، لراعك من ذلك ما راعني ، ولأعجبك من ذلك ما أعجبني ، فإني لا أقضي العجب من هذه النعمة التي أجرى الله بها الخير على يدي ، وما رأيت أعجب من أمر محمد (ص) فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء . رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات ، فيأبى منها ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم ، وأنه لم يرسل إليهم ليقهر العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآناً يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى ، ويتحدث إلى قلوبهم فيملؤها رحمة وبراً ، ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الألباب ، دون أن تغير من طبيعة الأشياء حدثاً أو تتجاوز بعادات [illegible] المألوف ، إنما هي معجزات عظيمة [illegible] بهيجة ، ويراها المفكرون نادرة باهرة ، ومقنعة مفحمة للمكابرين .

لقد كان محمد رجلاً لا كالرجال ، ولقد كان بشراً ، ولكنه امتاز من الناس بخصال أحسها وأحققها في قلبي وفي عقلي ، ولكني لا أجد إلى تصويرها سبيلاً . قال الأمير : فأفصح عما تريد ، واقصص عليّ قصتك فإنك قد أثرت في نفسي عجباً من العجب . قال الشيخ : فإن قصتي يسيرة كثيرة كشكل ما يتصل بهذا الرجل الكريم الرحيم . إنك لتعلم أني ذهبت إلى تلك القرية أتعهد بعض أعمالي ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيماً من عظمائها النصارى قد رزئ في صبي له . فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه مواسياً ومعزياً ، فأصل وألقى الرجل حتى لي ، وقد ملك الجزع كل أمره وأخرجه عن طوره ، ولقد كنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبي قد كان وحيده ، وقد كان قرة عين له حين تولى عنه الشباب وأدركته الشيخوخة ، فلما نزل به الخطب لم يثبت له ولم يستطع عليه صبراً ، وقد عجز من كان يحيط به من القسيسين والرهبان عن تعزيته وتسليته ، وعن أخذه بالرفق به والاشفاق عليه ، فأتحدث إليه في لغته القبطية مواسياً مسلياً ، وأقول له فيما أقول : لو عرفت أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك منها طرفاً . فقد رزئ نبينا في صبي وحيد له ، كما رزئت في صبيك هذا الوحيد ، فتلقى الرزء لقاء كريماً ملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له وإعجاباً به ، ورحمة لمصيبة من أبنائنا ، في احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واستمساك بالوقار ، واعتراف بحق الله فيما يمن به علينا من المال والولد ، بأخذه كما أعطاه دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور به ، وإنما هي نعمة أهديت إلينا ثم أخذت منا ، وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا ، ونحن نقدر الله شاكرين إن نحن احتملنا المحنة وصبرنا على الابتلاء .

[illegible] حديثك ، فإن ما تقوله يبعث في [illegible] وأسى ورقة . قلت : فإن نبينا قد رزق في آخر أيامه صبياً ابتهج لمولده ابتهاجاً عظيماً ، وسر به سروراً لا يقدر ، ولكن نبينا كان يحسن لقاء النعمة كما كان يحسن لقاء المحنة ، كان لا يخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطر والأشر أبعد الأشياء عن نفسه ، وكان إذا رضي لم يستأثر بلذة الرضى ، وإنما يشرك فيها الناس ، فلم يكد يرزق هذا الصبي حتى أعلن ذلك إلى الناس مغتبطاً ثم تصدق على الفقراء ، ووسع على من ضيقت عليهم الحياة . وكان رفيقاً بابنه هذا يسعى إليه عند مرضعه إذا قل الناس فيأخذه فيقبله ، ويقول له ما شاء الله أن يقول من هذه الألفاظ الحلوة التي تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم .

وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تحصى ، وكان شيئاً امتحان الله له في أحب الأشياء إليه ، وآثر الناس عنده ، فما يبلغ ابنه ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى إليه

الفلاة . ويمضي النبي مع نفر من أصحابه يقال له عبد الرحمن ابن عوف يعوده ، فيلقاه وهو يجود بنفسه . وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذي جاءه حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيخوخة ، وحين استيأس من الولد ، ينظر الأب إلى ابنه هذا أسيفاً محزوناً ، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً مذعناً لقضاء الله ، وهذه عينه تدمع ، وهذا صاحبه ينكر منه ذلك ، ويقول له : أتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء ؟ فيجيبه : « إنما هذا رحم ، وإن من لا يَرحم لا يُرحم ، إنما نهى الناس عن النياحة ، وأن يُندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال : لولا أنه وعد جامع ، وسبيل مأتاه ، وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا ، وإنا عليه لمحزونون ، تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وفضل رضاعه في الجنة »(١) .

وهنا تنحدر من عيني الرجل دموع غزار ، وتأخذه هزة شديدة يهتز لها جسمه كله [illegible] ثم قال : أتدعني بحديثك هذا ، [illegible] وجلتها لحديث قط ، فأعيد عليه الحديث ، فيسمعه مصغياً إليه أشد الإصغاء ، ولا تنهمر عبرته ، ولا تأخذه الرعدة هذه المرة ، وإنما يقول في صوت هادئ : امض في حديثك . فأقول : لقد بلغت آخره أو كدت أبلغه ، فهذا الأب يحمل ابنه إلى القبر ، ويجلس ينظر والناس يوارونه في التراب ، ويرى فرجة قد تركت في اللحد ، فيأخذ حجراً ويناوله من قام على تسوية القبر ويقول : إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي(٢) .

وهنا يعود الرجل إلى الاستعبار ، ولكنه في هذه المرة لا يبكي وحده ، وإنما يبكي معه من حوله من الناس ويقول راهب من رهبانهم : « ما هذا بكلام رجل كالرجال » . ثم يسأل الشيخ أن أمضي في حديثي ، فأقول : لقد انتهيت منه أو كدت أنتهي ، فقد عاد نبينا إلى بيته محزوناً جلداً ، وانكسفت الشمس في ذلك اليوم ، فيتحدث الناس بالمعجزة ، ويقول بعضهم لبعض : إنما انكسفت الشمس حزناً لموت إبراهيم ابن النبي .

ويبلغ حديث الناس إلى نبينا ، فيخرج سابغاً حتى يأتي المنبر ، فيرقاه ويحمد الله ويثني عليه فيقول : « أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد »(١) .

وأقف بحديثي عند هذه الغاية ، وأنظر فإذا من حولي في صمت عميق تنحدر على وجوههم دموع هادئة لا تمثل حزناً ولا جزعاً ، وإنما تصور قلوباً لينة رحيمة ، ونفوساً [illegible] النصارى . وإذا الشيخ ينهض من مجلسه [illegible] وهو يقول : ابسط يدك فما أرى [illegible] الهدى . وما أكاد أتلقى منه [illegible] والقسيسون الذين حضروا [illegible] كلهم يعلن إسلامه ويتبعهم من حضر من عامة الناس .

وما أسرع القرية من الغد حتى يكون أهلها جميعاً قد ساروا سيرة عظيمهم وقسيسيهم ومن وفد عليهم من القرى المجاورة . وحتى يكون بيت مالك أيها الأمير قد رزئ فيما رزئ فيه من الجزية . قال الأمير بعد صمت طويل : فهل تعلم أن لهذا الحديث وجهاً آخر من الإعجاز . قال حنظلة : وما ذاك ؟ قال الأمير : لقد سمعت من كان يتحدث في الشام عن موت إبراهيم ابن رسول الله ، ويقول : إن النبي (ص) قال : « لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي »(٢) .

فأنت يا حنظلة قد أحييت ذكر إبراهيم في هذه القرية فوضعت الجزية عن أهلها .

طه حسين

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٩
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩٣

الوحدة العربيـــة

بين الأمس واليوم

لمحرر « الثقافة » السياسي

كانت الوحدة العربية حقيقة تاريخية ، اختلفت قوتها ووجودها عصوراً طويلة ؛ فقد جمع الإسلام بين أمم الجزيرة تحت لواء واحد ، وقامت الدولة العربية الموحدة ، ولم يمض سوى قليل حتى اندمجت فيها وحدات عنصرية وسياسية جديدة اعتنقت الإسلام ديناً ، وغلبت عليها العروبة بمضي الزمن ؛ وكانت الدولة الأموية تشمل فضلاً عن الجزيرة العربية عدة أمم وأقطار واسعة تمتد من السند إلى المحيط الأطلانطي والأندلس غرباً ، و[illegible] شمالاً حتى أعماق آسيا الصغرى ؛ [illegible] بعد الدولة الأموية ، فشقت [illegible] والأندلس ، واستمرت بالرغم من [illegible] الأمم الخاضعة لها ، زهاء قرنين تحتفظ بروح الدولة العربية ووحدتها السياسية ؛ فلما تفككت هذه الوحدة في أوائل القرن الرابع ، وقامت في مصر بعد ذلك بقليل خلافة جديدة هي الخلافة الفاطمية ، تضاءلت أهمية الدولة العباسية كدولة عربية ، وانضوت أهم الوحدات العربية القديمة ، وهي مصر والشام والحرمان واليمن تحت لواء الدولة الفاطمية . ونستطيع أن نقول إن مصر لبثت من ذلك الحين بحدودها السياسية التي كانت تمتد شمالاً حتى كيليكية في آسيا الصغرى ، وجنوباً إلى ما وراء الحجاز ، وغرباً إلى إفريقية (تونس) ، تمثل الدولة العربية الكبرى ، واحتلت القاهرة مكانة بغداد القديمة في زعامة الإسلام والعروبة ، خصوصاً بعد أن قضى التتار على الخلافة العباسية ومحوا رسومها .

لبثت الوحدة العربية في جميع عصورها السياسية والفكرية والاجتماعية ماثلة بين بغداد والقاهرة طوال العصور الوسطى ؛ ولم تخب أهمية هذه الوحدة حتى دول السلاطين المصرية ، فرأت أن تستكمل مظاهرها التقليدية بإحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سقوطها في بغداد ، واستطاعت مصر أن ترد عن تراث الإسلام والعروبة سيل [illegible] من المشرق ، ولكنها لم تستطع أن تصمد أمام سيل الترك العثماني المتدفق من الأناضول ؛ وفقدت مصر [illegible] العربية ، وفقدت حريتها واستقلالها ، و[illegible] الشام ؛ وكانت الكارثة الروعة التي [illegible] الأمم العربية كلها زهاء أربعة قرون .

* * *

على أن فكرة الوحدة العربية أو الجامعة العربية كما تسمى في لغة السياسة المعاصرة ، لبثت كامنة في الصدور ترقب فرص الظهور والعمل ؛ ومنذ أواخر القرن الماضي رأيناها تتألق في الأفق وتثير جزع خصومها من الترك والمستعمرين ؛ وفي أثناء الحرب الكبرى لاحت للعرب بارقة أمل في تحقيق حلمهم القديم وأمنيتهم الكبرى ، فانضموا إلى جانب الحلفاء لقاء عهود ومواثيق مقطوعة ؛ ولكن لنشوة النصر أطاحت بكل عهد وميثاق ، وفرقت الأمم العربية من جديد شتى الانتدابات ، وألفت نفسها مضطرة إلى متابعة النضال والكفاح .

ونستطيع أن نقول اليوم إن الأمم العربية قد أحرزت

في هذا النضال قسطاً من النجاح ، وقطعت مرحلة هامة في سبيل تحقيق أمانيها واسترداد حرياتها ، وهي ترى في ذلك ما يشجعها على استئناف البحث في أمر الوحدة العربية !
ولهذه الوحدة اليوم مظاهر كثيرة ، فالأمم العربية تكاد تفكر اليوم بعقل واحد وتشعر بشعور واحد ، وهي فضلاً عن كونها تجتمع حول تراث موحد في الدين واللغة والتاريخ المشترك ، ترتبط معاً بروابط فكرية واجتماعية واقتصادية وثيقة ؛ ولسنا بحاجة لأن نطيل في أمر هذه الروابط ، فهي ظاهرة ملموسة تنمو باطراد يبعث إلى الغبطة ؛ على أن هذه الروابط المعنوية الوثيقة ليست كل ما يبغيه أنصار المثل الأعلى في شأن الوحدة العربية ، فهم يرون أن هذه الروابط الوثيقة بين الأمم الشقيقة ليست إلا خطوة فقط في سبيل الوحدة الحقيقية ، وهي الوحدة السياسية .

* * *

لقد كانت الوحدة العربية السياسية [illegible] تاريخية ، ولكنها كانت كذلك يوم كانت دولة الإسلام والعروبة تحتفظ بكل منعتها وصولتها ؛ وكان الشرق العربي حراً في ظلها وتحت لوائها . ولكنا اليوم نشهد منظراً آخر ، فالأمم العربية تعيش تحت أوضاع ونظم سياسية جديدة ، بعضها مستقل أو متمتع بنوع من الاستقلال الداخلي ، وبعضها الآخر لا يزال تحت الانتداب أو الحماية ؛ وهنالك دولتان من الدول الأوروبية هما بريطانيا العظمى وفرنسا تتنازعان السيطرة والنفوذ في الشرق العربي ، ولكل منهما سياسة خاصة ، واتجاه خاص لا يتفقان دائماً ؛ ولكل من الأمم الشقيقة داخلها مشاكل خاصة ، يتوقف حلها على سياسة هذه الدولة أو تلك ؛ ومن الصعب أن نتصور في مثل هذه الحالة قيام دولة عربية كبرى تضم أمم الشرق العربي في صعيد واحد ؛ ويجب قبل أن نتصور إمكان تحقيق هذه الأمنية أن تتحرر هذه الأمم العربية من كل وصاية أجنبية ، وعندئذ فقط تستطيع أن تعمل على تحقيق وحدتها السياسية حرة طليقة من كل قيد .

والتاريخ الحديث يدلنا على أنه من الممكن أن تؤلف دولة واحدة من شعوب وأجناس مختلفة تتكلم بلغات مختلفة ، كما هو الشأن اليوم في دول مثل روسيا السوفيتية ، وسويسرا ، وكندا ؛ فهذه الوحدات السياسية الحديثة تتكون من عناصر وأجناس مختلفة ، وتعيش معاً تحت نظام سياسي وإداري موحد ، وتؤلف دولاً اتحادية من أحدث طراز ؛ ومثل هذا النظام الاتحادي أقرب وأيسر إلى التحقيق بالنسبة لأمم وشعوب تجمعها روابط عنصرية قوية ، وتدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة كالأمم العربية ؛ [illegible] الوحدة العربية يمكن أن تكون حقيقة [illegible] كما هي اليوم حقيقة معنوية ، ولولا أنه تحول اليوم دون [illegible] العوامل الخاصة التي هي نتيجة لظروف [illegible] وسياسية لم تردها الأمم العربية ولم يكن لها شأن فيها .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نتصور اليوم تحقيق هذه الوحدة في معنى من المعاني ، بل لقد شهدناها بالفعل تتحقق في صورة من الصور حول المسألة الفلسطينية ، حينما اجتمعت الأمم الشقيقة كلها في جبهة واحدة لبحث هذه المسألة مع بريطانيا العظمى ، باعتبارها مسألة عربية إسلامية تهم الأمم العربية كلها ؛ وقد كان في ذلك دليل على أن بريطانيا العظمى تقدر أهمية الوحدة العربية في العمل على توطيد السكينة والسلام في الشرق العربي ؛ وفي اعتقادنا أن إنشاء هذه الجبهة السياسية الموحدة لمناسبة المسألة الفلسطينية إنما هو خطوة جديدة في سبيل الوحدة العربية ، قد تقوى وتتسع إذا أفسح لها الطريق ، ولم تلق معارضة من سياسة أجنبية خصيمة تخشى بأسها .

وعلى أي حال ، فإنه إذا كان من المتعذر أن تحقق فكرة الدولة العربية الموحدة في العصر الحاضر ، للأسباب التي أشرنا إليها ، فإنه يمكن إنشاء نوع من الجبهة السياسية الموحدة ، تنضوي تحت لوائها جميع الأمم العربية ، وتكون أداة التوحيد كتلها وغايتها في جميع الشئون المشتركة ، وللأمم العربية أسوة في ذلك بالجامعة الأمريكية ، فالولايات المتحدة وأمم أمريكا الوسطى والجنوبية تنضوي جميعاً تحت لواء الجامعة الأمريكية التي تتزعمها وتقودها الولايات المتحدة ، وتعقد مؤتمراتها الدولية لتوحيد الآراء والخطط العامة في شئون السياسة الخارجية وغيرها من الشئون المشتركة ، وهي قوة سياسية لا يستهان بها في مقاومة أية محاولة من الدول الأوروبية لبسط نفوذها على أية دولة من الدول الأمريكية الصغرى.

فلماذا لا تكون ثمة جامعة عربية من هذا الطراز ؟ ولماذا لا يكون اجتماع كافة الأمم العربية حول المسألة الفلسطينية نواة لعقد الجامعة السياسية التي يجب أن يوضع لها دستور خاص ، والتي تسبغ بقيامها قوة جديدة على الوحدة المعنوية التي ترتبط الأمم العربية بروابطها الوثيقة ؟

إن التاريخ يسير ، وما يتعذر تحقيقه اليوم من أماني الأمم العربية قد يتحقق غداً ؛ وقد يعيد التاريخ نفسه فتصبح الوحدة العربية ، كما كانت في الماضي ، حقيقة قائمة ، وتعود الأمة العربية قطباً مكتسباً الحظ في العالم القديم.

* * *

صينية جديدة ...

للأستاذ عباس محمود العقاد

بيرل بك Pearl Buck هي الكاتبة الأمريكية الكبيرة التي وجهت إليها جائزة نوبل الأدبية في العام الماضي، فأصابت الوجهة في مقياس النقد وفي مقياس الخدمة الإنسانية والذود عن قضية السلام.

وكل رواية تكتبها بيرل بك يصح أن تسمى «صينية» بجميع معاني الكلمة كما يقولون.

لأنها كتبت كل ما كتبت عن الصين وأهل الصين، ولا نعرف أديباً غربياً حبب تلك البلاد إلى قرائه، وعطف عليها عطفها، أو وصفها كما وصفتها في رواياتها. وقد تقرأ عشرين كتاباً عن تاريخ الصين ووقائع أهلها وعادات أزمنتها، فلا الفرق بين هذه الكتب وبين رواية واحدة من روايات بيرل بك كالفرق بين قراءة أخبار الصين سنوات وبين الإقامة فيها بحسب التاريخ وعلم بالصين، وهذا إحساس بحياة الصين؛ أو ذلك منقول مسرود، وهذا محسوس مشهود، أو ذلك كلمات وأرقام، وهذا وجوه وأصوات وحركات وأحلام.

ويجوز أن تسمى الرواية من روايات بيرل بك صينية بمعنى آخر من معاني الكلمة ...

يجوز أن تسمى صينية بمعنى المائدة، لأنها في الواقع مائدة حافلة بالغذاء الشهي والشراب الزكي، لا كلفة فيها ولا حرمان، ولا شح فيها ولا شطط، ولكنها مائدة تشبع وتروي، وتتركها وأنت منشرح غير نادم.

والصينية الجديدة هي رواية الوطني The Patriot التي صدرت في البلاد الإنجليزية منذ أيام: بطلها من الصين، وهو الوطني المقصود، ومعظم وقائعها حدثت في الصين، وهي وقائع الثورة الأخيرة وقيادة شيان كاي شيك،

ولكنها تحوي طرفاً صالحاً من تصوير الحياة اليابانية في جوانبها المختلفة: حياة الأسرة وحياة الجماعة وحياة التجارة وحياة الحرب والسياسة، لأن الكاتبة قد عاشت في بلاد اليابان بعد إفلاتها من الأرض الصينية على أثر احتدام الثورة فيها، وكانت ثورة جامحة تمرد على سلطان الحكم القديم، وعلى سلطان الغربيين من أصدقاء ناطقين وأعداء طامعين، وعلى سلطان اليابان ومطامع اليابان، فلم تبق منها جريرة إلا أنها بيضاء، وكل أبيض وبيضاء مجرم في نظر الثورة «الصفراء»؛ فهو مدين قبل البحث والتحقيق، ومدان بعد البحث والمراجعة أن ذلك الأبيض [illegible] كريم، ولكن بعد أن تموت!

* * *

في رواية «الوطني» يرى القارئ حقيقة المتكررين المتعارضين بإنصاف لا موضع فيه للتشنيع ولا الإجحاف ولا التشويه.

فاليابان من جهة نظامها واقتصادها وصناعتها واستعدادها.

والصين من جهة تراثها الأدبي وعروقها الراسخة، ووطنيتها الجديدة التي لم يكن لها قبل العصر الحديث اسم معروف في جميع لغاتها.

اليابان محق عند الصينيين والصينيون محق عند اليابان، ولكل منهما حجة مسموعة، ولكل حجة من هذه الحجج معنى مقبول.

وإذا كانت إبرة الميزان تنحرف في يد الكاتبة بعض الانحراف بين كفة اليابان وكفة الصين فربما كان الانحراف الواضح إلى هذا الجانب الأخير.

وصفت رحلة رسول القائد الأكبر «شيانج كاي شيك» إلى قائد الشيوعيين من أبناء الصين في داخل البلاد ، وكان الرسول زميلاً في المدرسة للقائد الشيوعي ، وشريكاً له في مظاهرات التلمذة ومؤامرات الشباب ، وإن فرقت الحوادث بينهما حتى لم يحتمل من كليهما .

في الطريق يحل الرسول ورفيقه الطيار الأمريكي في خان قذر لا غنى لهما عن النزول فيه .

فيأتي صاحب الخان بعد هنيهة ويشكو له صياح ذلك «الأبيض المجنون» لغير سبب ... نعم لغير سبب إلا أن في الفراش بعض مخلوقات الله التي يحق لها أن تعيش في الدنيا كما يعيش كل مخلوق !

نعم ويصيح ذلك الأبيض المجنون لسبب آخر يشبه ذلك السبب في التفاهة والحماقة ... إنه يشكو ملازمة الطفل ؟ فلا يمتنع صاحب الخان ؟ لأنه المحكم الذي [illegible] الحق الطائع ، وما دام ذلك الأبيض [illegible] سيأتيه ونفقة مثله ، فليس على صاحب [illegible] إلا [illegible] معاودة الأطفال ، وأن يقطع له الحر [illegible] المرضعات والمفطومين !!

والقطيعة الكبرى أن يذهب الرسول إلى الإقليم الشيوعي ، فإذا هم يقبضون على الأسرى اليابانيين فينتقمون منهم أبشع انتقام لما اقترفه الجنود اليابانية من العدوان والتنكيل في أثناء القتال ، ويؤتى بالأسير من هؤلاء فيربط إلى شجرة ، ويحيط به الكبار والصغار للتسلي بتعذيبه وإزهاق حياته ، ويكون في القرية يوم كيوم الزينة في المدينة ، يطعنه هذا ويدفع هذا بأصبعه في عينه ، ويموت المسكين كمد الأمر بين الصفقين والشامتين .

ويسأل الرسول زميله قائد الشيوعيين : ما هذا ؟ وكيف يأذن بهذه الضراوة الوحشية في إقليمه ؟ فيقول له القائد الشيوعي وهو يعجب لعجبه : وكيف لا آذن بها وهو كل ما أعطيه هؤلاء المحرومين البائسين من مكافأة ؟ إن القواد يقتلون أبناءهم في الحروب بالغنائم والسبايا والتحكم على الأتباع والرعايا ... أما نحن في هذا الإقليم فلا نملك شيئاً من ذلك ، ولا نستطيع أن نحرمهم هذا اللعب الوحيد من ألعاب القلب والسطوة ، فليجربوا الضراوة والفراوة وليقتصوا مما يصيبون من هذا الجزاء .

وتسوق الحكاية هذه المحاورة بين الزميلين مساقاً لا يشعرك بسخطها وتبرمها ، ولا يشعرك في الوقت نفسه بعذرها وغفرانها ، ثم تمضي هذه القطاعة بما انتهى إليه الزميلان بعد الجهد والنزاع من تبديل انتقام بانتقام ، ومن إطلاق الشيوعيين للأسرى بعد تزويدهم بمبادئ الشيوعية ليذيعوها في الجنود اليابانية ، وينقلوها إلى العمال والفلاحين في وطن الأصل ، وذلك انتقام أفتك من قتل أفراد يعيشون [illegible] أثناء تعذيبهم [illegible] حقداً على أهل الصين وإمعاناً في تخريب معالم الصين !

[illegible] هذه القطاعة [illegible] ورعاً [illegible] من وصف القطائع اليابانية في ميدان القتال [illegible] ضابط ياباني أوغل في السكر فجرى لسانه بما كان يكتمه عن أقرب الناس إليه ، وذلك أنهم كانوا يغتصبون البنات الصغار فيما بين العاشرة والخامسة عشرة ، فإذا صحن واستغثن ضربوهن بالقتل والتهشيم ، ونسوا أنهن لا يفهمن التهديد لأنهن لا يعرفن اللغة التي يتكلم بها أولئك الضباط والجنود ، فإذا أصررن على الصياح كان جزاؤهن بحد «المدى» بقر البطون وتمزيق الأحشاء .

ومن سنة الحكاية في انتزاع القسوة من نفوس قرائها تروي لك القصة وفي طيها شفاعتها اللطيفة لأعراضها ، لأنها تخيل إليك أن الضابط الياباني يفرط في السكر من تكبيت الضمير ، ويبكي وهو يستحضر في ساعة السكر صورة ما جناه ! .

* * *

ولا تخلو الرواية من المعائب والنقائص في تصوير

عادات اليابان وعادات الصين .

فمن أعجب هذه التناقض حياة المرأة اليابانية بين المدرسة والمنزل والمجتمعات العامة .

لا ترى هذه المرأة ضيراً من الاستحمام على مشهد من الرجال وهي عارية كما خلقها الله .

ولكنها إذا وصلت إلى سن الخطبة عكفت على دارها وامتنعت عن لقاء الشبان إلا بإذن من أبويها ، وحُرِّم على الشاب الذي كان يلقاها في بيت أبويها أن يجلس إلى جانبها أو يسأل عنها في محضر منهما ، ولم يجز لها أن تعارض أباها إذا اختار لها زوجاً لا ترضيه ، فإذا لم يعجبها الزوج فعليها أن تطيع ثم تبخع نفسها للإبانة عن سخطها واعتراضها ، فإذا كان في هذا الزواج البغيض مصلحة وطنية أو تحقيق لمشيئة أمبراطورية فلا اعتراض ولا احتجاج ، بل طاعة من الفتاة ونسيان للنفس وتحبيب المهجور وهنا [illegible] .

وهذه الفتاة التي يفرض عليها العرف أن تستحي من مجاورة الشاب في مجلس أبيها تزف [illegible] فإذا هي تعرف من الليلة الأولى كل ما [illegible] المرأة الخبيرة التي تبذلت في إرضاء الرجال سنوات وسنوات . فإن كان الزوج يابانياً فلا عجب عنده من هذا السلوك العجيب ، وإن كان أجنبياً وراءه ما يرى ويلمس من تلك الفتاة الخفرة التي كانت تأوي إلى « الحريم » قبل ثلاثة أيام ، فسيطول به السؤال من أين عرفت الفتاة كل هذه الأسرار الأنثوية وهي لم تعرف قط أحداً من الرجال ؟ إنهم يأتون لها براقصة مدربة من شبيهات النساء المسميات « بالجواري » عندنا نحن الشرقيين ، ويتركونها في خدمتها تعلمها كل ما علمته في حياة الخلاعة والمجون ، لأن المرأة الناجحة لا يعني في عرف اليابانيين أن تكون أمتع للرجل وأشهى إليه من زوجته التي يدين لها وتدين له بالولاء .

* * *

عجبت لهذا التناقض بين المرأة التي لا تستحي من العري على مشهد من الرجال وبين هذه المرأة عينها وهي تتحجب وتتوارى في الدار ، وبين هذه المرأة عينها وهي تزف إلى زوجها فتدخل إليه بخبرة النساء المتبذلات .

أليس لهذا التناقض كله من تعليل ؟

أحسب أن تعليله غير عسير لمن عرف أن اليابانيين منقسمون في تربيتهم بين حياة الفطرة وسلطان الأسرة ، فهم على سنة الفطرة فيما بين الذكر والأنثى من علاقة ، وهم على سنة الأسرة فيما بين الزوج والزوجة من قيود الآباء والأمهات ، ولو طال عهدهم بالمدن والحضارة في جزائرهم البركانية لأقاموا الفواصل الاجتماعية والفواصل العرفية بين الفطرة الحيوانية والآداب الاجتماعية ، ولحرموا من عري المرأة ما حرمته الأمم التي اشتركت في حضارات التاريخ المتطاولة ، وخرجت من الوثنية في بعض الأطوار كما خرجت منها في سنن العبادة .

* * *

[illegible] القارئ على رواية « ريح بكاء » هذه فيفهم منها [illegible] مقاومة الصين ، ويفهم منها أسرار ما هو [illegible] الأبطال في ميادين القتال ، وما يتوقع حصوله في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد إذا طال عمر القتال العظيم الذي يقوده الصين في حرب اليابان .

ولا قيمة للمدن ولا للمسافات ولا لعدد الناس في خطة هذا الجبار العنيد ، لأنه يؤمن أصدق الإيمان أن الصين باقية بعد كل ما خسرت وكل ما تخسره غداً من المدن والمسافات والقتلى والمستسلمين ، وأن الصين يقترب بعضها من بعض في الأسرة الوطنية الحية بعد اشتراكها في الشدة واشتراكها في الدفاع واشتراكها في الهجوم كلما تراخى هجوم الأعداء ، ولكن اليابان لن تبقى على قوتها واتساعها بعد هذا الصراع الطويل ، ولن يقترب بعضها من بعض كلما طال الصراع ، بل هي خليقة أن تتفكك وتتخاذل ، وتبلغ النصر إن بلغته وهي منهوكة لا تدري ما تصنع من الإعياء ، والعاقبة للصابرين ؟

عباس محمود العقاد

من قصص العرب :

سيد ربيعة

كليب التغلبي

ملخص لما سبق :

كان كليب التغلبي سيد قبائل ربيعة بعد انتصاره على أقيال اليمن ، وقد طغى بعد ذلك حتى صار يحمي المراعي ويمنع من يشاء من النزول بها ، فأثار ذلك غضب شاب من أبناء عمه من قبيلة بني بكر ، وهو جساس بن مرة أخو زوجته جليلة ، فحاول كثيراً أن يتحداه ويتعرض له ، ولكن كليباً كان يتغاضى عن إساءته إكراماً لزوجته إلى أن وصلت إليه الأيام بما لا يحتمله . ثم نزلت ناقة اسمها سراب في مراعي كليب ، وكانت لرجل نزل ضيفاً على البسوس خالة جساس ، فطردها كليب من المرعى . ولكن جساساً أصر على تركها في مراعيه فرماها كليب بسهم في ضرعها فقتلها . فرأى جساس في ذلك إهداراً لجواره ، وتعاظم الضغينة في قلبه ...

ماتت (سراب) ناقة ضيف البسوس من أثر السهم الذي أصابها من كليب . ومضت [illegible] الناس فيها يتحدثون بما يفعل جساس ، وكانوا في مجالسهم يتهامسون من يمينه التي أقسمها ليقتلن فحل كليب انتقاماً لناقة جار خالته ، ويتفكهون بالتهكم عليه والسخرية منه . لقد تعرض لكليب وآذاه واعتدى عليه في حرامه ولم يقدم على مثلها من هم أجرأ منه وأقوى جناناً ، حتى إذا ما سطا به كليب ووضع سهمه في ضرع الناقة فقتلها ، خشع وخاف ولزم الخمود ، ولم يتعد الحمى .

وكان جساس في أثناء تلك الأيام قد اعتزل وباعد الناس ، وصار لا يأنس إلى أهل ، ولا يحضر مجالس القوم ، فلا يراه أحد إلا وحده في الأطراف البعيدة الموحشة ، اللهم إلا أحد أبناء عمومته عمرو بن الحارث ، فقد كان أحياناً يسير معه خلسة في الليل ، أو يجالسه ساعة من النهار ، فإذا ما وقع بصر الناس عليهما تركه عمرو وحده وذهب في طريق غير طريقه . وكان عمرو [illegible] كان ضعيف الجسم قليل الهمة ، لا خطر له في قومه ، [illegible] لم يشهد غارة على عدو .

ولقد حدث يوماً أن كان يسير على مقربة من الروضة التي اختارها كليب لنزهته ، فلمحه الكلب الواقف عند مدخلها على عادته ، وأقبل عليه فعضه ومزق ثيابه ، فبعد عنه حذراً ، وأسرع يجري خوفاً أن يراه الأمير فيوقع به العقوبة التي اعتاد أن يوقعها على من يقربون من المكان الذي أقام فيه ، وأحس عند ذلك بذلة وانكسار طعنا قلبه ، ولم يستطع أن ينفس عما خالط نفسه من الشعور ، فانقلب وجده حقداً ، وصار من ذلك الحين شديد الكراهة لكليب ، وصارت كراهته تزداد عمقاً وقوة كلما تبين له عجزه عن الانتصاف من الأمير الكبير ، وكلما رأى نفسه غير قادر على الإفضاء بكراهته إلى أحد .

فلما وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ذهب ذلك الفتى إليه وأطلعه على حقيقة نفسه ، وجعل يتمسح فيه ويمشي في كنفه ، ولكنه كان يحترس في لقائه ، فلا يجتمع

به إلا تحت ستار الظلام ، أو في عزلة من الأنظار .

ولما مضت هذه الأيام بغير حدث جديد بين جساس وكليب ، حسب الناس أن الأمر قد انتهى إلى نهاية ، وأن جساساً قد عدل عن محاولة ما لا يستطاع ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ونسي الجميع الحادث الذي مر ، فلا يكاد أحد يذكره ، إلا أن تكون فكاهة يتفكهون بها ، ويجعلونها موضع تندرهم والتسمر في مجالسهم .

غير أن جليلة كانت دائمة الترقب والحذر ، فقد كانت تعرف أخاها وما طبع عليه من عناد ، وما كان يملأ قلبه من الحقد ، فكانت لا تزال تنتظر الغد وما يأتي به ، وتحس في قرارة نفسها أن جساساً لم ينس الإهانة التي لحقته ، وأنه إنما كان ينتظر الفرصة السانحة والغيرة اللائقة . وقد تجرت في كل تلك [illegible] يقظاً الدقيق الذي [illegible] على [illegible] بالرمل وعنه الرمح والنظر الطويل من [illegible]

فاكتفت بأن كانت تجلس كل ليلة في خشوع قبل نومها ، تناجي مناة واللات ليحفظا لها زوجها العزيز ، وبأن تضع التمائم التي أعدتها عرافة تغلب عند رأسه إذا نام .

وخرج كليب في صباح يوم كغيره ، وكان يقصد ذلك اليوم أن يتنزه من الحي ، ويذهب إلى الروضة التي كان يتخذها مكاناً لخلوته ، وأمر بعض عبيده أن يتبعوه إليها ليعدوا له فيها طعاماً وخمراً . ولهذا لم يذهب في سلاح غير سيف علقه في عنقه ، فقد عزم أن يقضي ذلك اليوم وادعاً ، لا يصيد فيه صيداً ، ولا يشهد خيلاً ولا إبلاً .

وذهب إلى مربط الخيل فركب فرسه الرباب ، ودعا كلبه عسافاً ليرافقه ، وسار وحده سيراً هيناً وقلبه ممتلئ بنشوة الصباح ، والنسيم البارد يبعث في جسمه نشاطاً وفي نفسه خفة وسروراً ، وعزة الشباب وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغني على [illegible] ، وبدت له الدنيا تفيض بالسعادة والجمال . ولمح في أثناء سيره شخصاً جاثياً عند ثنية من ثنايا الوادي ، فلما وقع بصر الشخص عليه أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحارث الفتى الشيباني الذي كان يراه أحياناً يجالس عبيده في مراعي الخيول ، فلم يكترث به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بانصرافه هرباً عند مقدمه ، وهل كان عجيباً أن يسرع مثله ليبعد عن الطريق التي يسلكها كليب ؟

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حيناً يتأمل جمال منظرها ، ويملأ عينيه من اخضرار أشجارها ونخيلها ، ونضرة أعشابها وزهورها ، وقد عقد الندى [illegible] منثورة على الأرض الزمردية ، وانعكست [illegible] في أسلاك [illegible] العنكبوت ، فبدت كأنها درر تتلألأ في شعاع الشمس [illegible] بفرسه يتأمل هذا المنظر البديع [illegible] خالقه الرائع ، ثم سمع من خلفه وقع حوافر فرس يدنو منه ، فتكره أن ينظر وراءه ، لعلمه أن الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعا مبتعدين عن حماه ، وبقي واقفاً ينظر أمامه ويشبع بجمال روضته . ولكن وقع الحوافر لم يبعد ولم يقف ، بل أسرع وتقدم في تجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ، وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من ورائه : « يا كليب الرمح وراءك ! » .

فعرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، بل قال في لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامي » .

وبقي ثابتاً كأن ليس وراءه عدو مخيف .

وما كاد كليب ينتهي من جوابه حتى أحس طعنة شديدة في ظهره ، فارتمى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتخبط في دمائه .

فنزل جساس مسرعاً عن فرسه ، ونزع رمحه من

ظهر كليب بعد طعنته الشديدة ، ثم اقترب منه متكسراً كأن آوى إلا وجد جيفة .

فنظر إليه كليب نظرة تدل فيها معنى الاحتقار والحنق ، واختلط فيها شعور الغيظ بالعجز والضعف ، وهمّ أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص الأرض بقدميه وتقلب في دمائه ، وما هي إلا لحظة حتى لحقه نزال النزيف ، واعترته غشية الموت .

وفي مهلات كان يفيق فيما بينها إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تمتمة خافتة لا تسمع ألفاظها ، ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدري من يخاطب : « أغثني بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظر إليه شامتاً ، ثم ضحك ضحكة عنيفة وقال : « لا أبقى لك ريق أيها الطاغية » ، ووقف يتأمل رمحه في سرور .

وكان عمرو بن الحارث في تلك [illegible] واقفاً وراء جساس يضطرب ويرتعد ، وقد عاوده [illegible] الموت ، فلما سكن كليب أشار إليه جساس أن يتقدم ، فأتى إليه مترددا ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتيل بالحجارة خوف أن تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الخيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شيء ، حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتصبّب عرقاً ، ويهذي هذيان المحموم ، وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مُرة ، ليحمل إليه النبأ المشئوم ، ولكنه لم يملك نفسه في ركوبه فثبت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما ، وقد اعتراه شيء من الذهول بعد أن تبين خطورة فعلته .

كان الشيخ مُرة جالساً في فناء بيته مع بعض بنيه وحفدته ، وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساساً يقبل على فرسه راكضاً ، وهو عاري الركبتين ، فعلم أن وراءه خبراً منحوساً . والتفت إلى من حوله وقال : « ما رأيت جساساً ركب كما أراه اليوم » .

ثم قال لابنه بعد أن صار على مسمع منه : « ما لك يا جساس ؟ » .

قال جساس في صرخة مفزعة : « لقد طعنت طعنة تجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً » .

قال مُرة : « ومن طعنت ويلك ؟ » .

قال جساس في صرخة مضطربة : « كليب ! » .

ثم لوح برمحه وأداره على رأسه في الفضاء ، وقال في ضحكة جنونية : « وأدركت ثأر البسوس » .

فصاح أبوه صارخاً : « ثكلتك أمك ! أكليب في [illegible] ؟ » .

[illegible] جساس : « ألست من يخفر جواره ؟ » .

فنظر إليه الشيخ وأخذ حفنة من الرمل ورمى بها [illegible] وقال : « ويل لك من مشئوم منكود ! ماذا جئت على قومك من الهلاك ؟ » .

فرفع جساس رمحه فوق رأسه مرة أخرى وأداره حوله في رقصة وحشية وقال كأنه يتغنى : « فزع الشيخ من خوف الثأر ! » .

ثم نزل عن فرسه واقترب من أبيه قائلاً : « دعني أيها الشيخ وحدي . إني لا أريد حمايتك . لقد عرفت أنك لا تجرؤ على الدفاع عني » .

فلما سمع الشيخ مرة قول ولده لم يحر جواباً ، واستغلق عليه التفكير والقول ، وحار في أمره أيتبرأ من ولده ويتنصل من جريمته ويتركه للقصاص ، لا يحميه ولا يدفع عنه ، فيحفظ بذلك قومه من حرب طاحنة مع أبناء عمهم بني تغلب ؟ أم يجري على سنة العرب فيغضب لولده وإن كان ظالماً ، وينهض للدفاع عن جريمته وهو ينكرها ؟ ولم

يجد مخرجاً من حيرته إلا أن نظر إلى شيخ كان جالساً في جواره ، لم يكترث لما حدث ولم يتحرك من مكانه والقوم كلهم من حوله في اضطراب وفزع . وفهم الشيخ نظرة الرجل الحائر فقام متباطئاً ، ثم قبض على ذراع مرة واتجه معه جانباً . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع حديثهما قال مرة وهو لا يكاد يبين : « ماذا ترى يا أبا عامر؟ »

فقال أبو عامر في هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ » .

فنظر مرة إليه مبهوتاً ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ في كلامه هادئاً : « لقد كان ما كان ، ولم يبق إلا النظر في أمر القوم . وأنت إذا تماديت في لوم جساس خذلت بني بكر وبني شيبان عن نصرتك إذا احتجت إلى نصرتهم » .

فهدأ مرة قليلاً وقال : « وما الذي ترى يا أبا عامر فداك نفسي ؟ » .

قال أبو عامر : « دع اللوم والجزع والتمس للقوم مخرجاً ، فإن ذلك أدعى أن يقتصدوا في طلب الثأر ، وادع بني بكر وحرضهم على القيام لنصرة جساس » .

فأدرك مرة عند ذلك خطأه في الاندفاع إلى تأنيب ولده ، وملك نفسه وعاد إلى هدوئه وذهب نحو الجمع المنتظر ، فقال يخاطب ولده : « جنيت الحرب يا ولدي ! أنت منا وإن خذلتك بكر أبداً . لن أسلمك حتى أقتل دونك مع قومي أو نشعلها ناراً حامية على قوم الطاغية الظالم » .

فلما سمع بنو بكر قول شيخهم مرة اهتزوا وعادت إليهم نفوسهم ، وتصايحوا : « يا لبكر ! قتل الطاغية ! » .

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعانقه وقبل يديه وقال في خشوع وصوته يكاد يختنق من التأثر : « لا عدمتك ناصراً يا أبي ! » .

ثم أخذ رمحه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدي والاعتداد بالنفس ويتغنى بأناشيد يدعو فيها قومه إلى الاستعداد لحرب الطاغية .

وصاح مرة في قومه وقد تبدلت لهجته وثارت نفسه وقال : « يا بني بكر سأضرب بأطراف العوالي . وأتقي الذل عن قومي وشرفي ، فما كانت بكر لتخفر جوارها أو تستكين للطاغية ! »

فقال أبو عامر : « يا بني شيبان من يكون للحرب إذا لم تكن له بنو شيبان ؟ »

فتصاعدت صيحة من القوم : « ستسل السيوف وندفع ظلم بني تغلب ، فقد هلك الطاغية . سندفع البغي ونحمي قومنا من عار الخضوع والذل » .

وأسرع الجميع إلى بيوتهم ليستعدوا للقتال ويجهزوا السلاح والعدة التي لا بد منها .

واختلى مرة وأبو عامر ساعة ثم بعثوا الرسل إلى قومهم [illegible] الارتحال من منازلهم ، حتى يبعدوا عن جوار بني تغلب ، [illegible] في البلد .

[illegible] في تلك الساعة مختلياً بمهلهل أخي كليب ، كانا [illegible] كل يوم يشربان الخمر في عزلة عن قومهما ، فأقبلت نحوهما جارية تقود فرساً ، حتى اقتربت منهما ، وأشارت إلى همام تدعوه في حذر ليذهب إليها على انفراد ، فذهب همام إليها فوقف معها لحظة ، ثم ذهبت عنه الجارية وتركت الفرس على مقربة من مجلسه . وعاد همام إلى مهلهل وهو مضطرب ممتقع اللون يكاد يتعثر في خطاه . فسأله مهلهل عما قالت له الجارية ، وكانا متعاهدين على الصدق لا يكتم أحدهما عن الآخر حديثاً ، فقال له همام وهو متردد : « تقول الجارية قولاً لا أكاد أصدقه » .

قال مهلهل ضاحكاً : « لعلها قالت لك إن سلمى آتية إليك الساعة » .

وكان مهلهل لا ينصرف عن الخلاعة ولا يتحدث إلا عن الخمر والنساء . ألم يكن معروفاً في قومه بالماجن الشكير ؟ أليس هو الذي كان كليب يدعوه « زير النساء » ؟

فأجابه همام جاداً وهو يقدر على الكتف لا يرثه ورمى صاحبه بين عهد الصدق: «لا أزال أسلى .. لقد زعمت أن جساساً قتل كليباً».

فضحك مهلهل ضحكاً عالية، وقال وهو يملأ كأساً: «تقول جساس قتل كليباً! إنه أعجز من ذلك وأخس. خذ هذه الكأس..».

فتناول همام الكأس، وشرب منها قليلاً، ونظر إلى صديقه وهو يرفع كأسه ويتجرعها، وشعر كأن حملاً ثقيلاً يزاح عن عاتقه عندما رأى أن مهلهلاً لا يصدق النبأ.

شرب مهلهل كثيراً تلك الليلة، واحترس همام فلم يشرب إلا رشفات قليلة. حتى صار مهلهل لا يقوى على الوقوف من السكر. ثم قام الصديقان فذهب كل منهما إلى جهة بيته. ولما غاب مهلهل وراء الكثيب القريب ركب همام فرسه، وأسرع في أثر قومه بعيداً عن منازل تغلب. بلغ مهلهل منزله فإذا ضجة عالية [illegible]

وإذا بنساء تغلب حاسرات يبكين كليباً [illegible] ملابسهن، وإذا بالرجال يضطربون ويتألمون ويكسرون السلاح ويقتلون الخيول إظهاراً لجزعهم على بطلهم الكبير، فقد علموا أن في قتل كليب ذهاباً لسلطانهم، وإضاعة لعزتهم.

ولما أقبل مهلهل على قومه، نظروا إليه في يأس وقال بعضهم لبعض: «لم يبق لنا إلا ذلك السكير الماجن الذي لا يكاد يفيق».

فقال مهلهل، وقد عاد إليه بعض وعيه من هول النظر: «ما بالكم تكسرون السلاح؟».

فقربت منه امرأة، وصاحت به وهي غاضبة: «قتلوا كليباً! وأنت لا تقوى على الوقوف».

فنظر إليها مهلهل بغضب! وقد وخزه كلامها فقال: «كان كليب يكفيني القتال. فالآن ستعلمين من أكون!».

ورفع رأسه واعتدل في وقفته، وتغير وجهه الجميل، فكشر به وهو مهدود فيه وقال: «أتكسرون السلاح، وتقتلون الخيول، وأنتم أحوج الناس إليها؟».

فوقف الرجال لحظة ينظرون إليه، وهم لا يكادون يصدقون أن مهلهلاً هو الذي يكلمهم.

فاستمر مهلهل يقول: «دعوا الحزن للنساء واشحذوا السيوف، هيا إلى البيوت فاستعدوا لحرب ضروس».

ثم ذهب وهو مطرق يفكر في شيء من الحزن، حتى إذا ما صار في بيته ارتمى في ركن، وجعل يبكي وحده ويتمثل ما هو فاعل للانتقام من قاتل أخيه.

اجتمع نساء تغلب في تلك الليلة للنوح والبكاء، وعلا صراخهن حتى رددت أصداءه جوانب الوديان. وفيما هن في ذلك دخلت عليهن امرأة طويلة القامة سمراء اللون عظيمة [illegible]، وقد شقت ثيابها، ونشرت شعرها الأسود الطويل، وعفرت وجهها، ودخلت تشترك مع النساء في [illegible]، وهي تختلج وتهتز من شدة البكاء.

[illegible] جسدها، وقد نظر النساء جميعاً إليها [illegible]. ولم تكن هذه المرأة إلا جليلة التي فجعت في زوجها الحبيب كليب.

وما كادت تستقر في مكانها حتى اندفعت نحوها امرأة فقالت: «لم تحضرين هنا أيتها العدوة؟»

فنظرت إليها جليلة بعينيها الحمراوين وقالت: «ألست امرأة كليب؟».

فصاحت بها امرأة أخرى قائلة: «اخرجي عنا أيتها الكريهة».

فقالت جليلة وهي تشيح بالبكاء: «أنا التي أصبحت ثكلى!».

فقالت المرأة الأولى: «أنت عدوة شامتة. ابعدي عنا»

فقالت جليلة باكية، وقالت ولا تزال تختلج وتضطرب: «كيف أبعد عن مناحة زوجي؟ إن كان مصابكم واحداً فمصابي مضاعف، زوجي قتيل، وأخي مطلوب، فنوحوا لكي مضاعفة، وقوامي تتجمع، بعض

نفس يبكي على بعض ، وبعض دمه يثور ببعض ، وأحمل في أحشائي جنيناً سوف يقيم بين قومي عدواً » . فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلة ويطردنها ، وأقبل بعضهن نحوها يردن إخراجها دفعاً والايقاع بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس الحزن لسانها ، وزادها ألماً ما لاقته من ظلم الثاكلات لها . وسارت في طريقها نحو قومها وهي تقول : « وا حر قلباه ! قتل الحبيب ، وقتله أخي ! تعساً لقاتله ، وويلاً لأول » .

ثم جعلت تنشد ، والدمع يكاد يشرقها :

فعل جساس على وجدي به	قاطع ظهري ومدن أجلي
يا قتيلاً قوض الدهر به	سقف بيتي جميعاً من علِ
هدم البيت الذي استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الأول
خصني قتل كليب بلظى	من ورائي ولظى مستقبلي
يشتفي المدرك بالثأر وفي	دركي ثأري ثكل المثكل

وكاد الحزن يذهب منها لبها ، وهي تطلب آثار قوم أبيها ، ولا يصاحبها في ظلام الليل إلا دمعها يقود خطاها .

وأصبح الصباح عليها وهي في قومها يحدون السير يطلبون أرض اليمن ليحتموا بها ويستعدوا لقتال أبناء عمهم قوم كليب .

وبكر بنو تغلب على الخيول ولبسوا لباس الحرب واستعدوا للإسراع في آثار بني عمهم من بكر ، ليطلبوا ثأر بطلهم الكبير ، ووقف في صدر الجمع مهلهل بن ربيعة ، وقد خلع عن نفسه ما اعتاد من عيشة النعيم ، وأقسم أن يكون ثأره هائلاً لمن قتل أخيه الحبيب وعاهله المعظم ، واشتعلت بعد ذلك الحرب الطاحنة التي بقيت نيرانها موقدة طوال السنين بين بكر وتغلب ، وكان شعارها صيحة عالية تتردد أصداؤها في أنحاء نجد : « يا لثارات كليب ! » .

(عن الحلقة) محمد فريد أبو حديد

مجلـــة الأزهر

صدر العدد الثالث منها ومن بحوثه :

(١) الفصل الثالث من السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة .

(٢) تحية شهر مولد النبي . وفيها دلائل قاطعة على النبوة .

(٣) منطق الدين وهي محاولة علمية لتمييز الدين الحق .

(٤) الآراء العالمية في الاسلام والمسلمين والتعليق عليها . وكل هذه المقالات بقلم الأستاذ محمد فريد وجدي مديرها .

(٥ و ٦) التفسير والسنة لفضيلتي الأستاذين الشيخ الدجوي والشيخ الجزيري .

(٧) حكم نكاح المتعة . والصلاة بالأحذية . والاستجمار بالورق للجنة الفتوى . وبقية المقالات : قادة الفكر في الاسلام . وبيننا وبين المستشرقين . والاسلام كما يراه الأوربيون . والتجديد في الاسلام . وحياة عمر بن عبد العزيز . وكنز الفاطميين المفقود . والجامعة والعقيدة . والزواج الأول للرسول . ودفاع عن القرآن . ونظام الوقف . لبعض فضلاء الكتاب .

الاشتراك عشرون قرشا يدفع مقدما . وثمن العدد قرشان بالادارة ولدى الباعة .

(٥٣١٠)

دروس من الأزمة العالمية

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

تغشى الناس في هذه الأيام غاشية من الهم الثقيل ، تجثم على صدورهم ، وتضيق أنفاسهم ، وتصبغ أمامهم أفق الحياة بلون مظلم قاتم . فقد اضطربت أمور السياسة العالمية ، واختل ميزانها ، وانطلقت نذر الحرب تؤذن بهوجاء عاصفة لا ترعى فيها للإنسانية حق ، ولا يؤخذ فيها بإل أو هوادة ، ولا يأمن شرها بعيد أو قريب ، ولا يفلت من أذاها مقاتل أو مسالم . فاصطكت أسنان ، وارتعدت فرائص ، وساد الذعر الأمم والأفراد ، وأخذ الساسة والمفكرون يستعينون بالصبر والأناة ثم الكياسة ، ويعدون العدة في نفس الوقت لكبح جماحها ودفع عاديتها ، وكأنما غاية جهودهم تأخير موعدها إلى حين ، لا رفع خطرها عن الناس إلى أمد بعيد .

فهل انتهى حلم الإنسانية السعيد في أن يعيش الناس على هذا الكوكب عيشة إخاء وود وصفاء وسلام ؟ وهل أصبحت المدنية بتكشف زيفها وحقيقة عارية ، لا يسمع فيها إلا زئير المفترس مختلطاً بأنات الضحايا وتوجعهم ؟ وهل فقدت الأديان تأثيرها الروحي في النفوس ، وبطل سحر المذاهب الأخلاقية الإنسانية ، ورجع العالم إلى شرائع الأدغال وعهود الغزو والاجتياح والإذلال والاسترقاق ؟

إن ظواهر الأمور تبرر تشاؤم المتشائمين ، ولكن لا تزال ثمة بقية من الأمل في أن يسود صوت العقل وتغلب دواعي الإنسانية وتزول أسباب الشقاق ، وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي هادئة آمنة ، تواصل خطى التطور دون أن تقوم عقبات تقطع عليها طريقها وتردها إلى الوراء .

على أن المحن لا تخلو مع شرورها ومخاطرها من فوائد ، وليس أقلها أنها تفتح العيون على الأسباب التي أدت لها والعوامل التي أنضجتها ، وتدل الأمم على مواطن عجزها عن مواجهة المفاجآت ومواضع النقص في استعدادها للأزمات الباغتات ، وتطلعها على أخطاء الماضي ، وتنير لها السبيل للمستقبل .

والظروف التي حلت بالعالم في هذه السنة والأحداث التي تتابعت على الحياة الدولية ملأى بالعبر ، فلننظر ماذا نقتبس من دروس .

* * *

لعل أبلغ دروس تلقيه الأزمة الحالية على الناس جميعاً المقابلة بين موقف الأمم الديمقراطية من ألمانيا يوم فرساي وموقف ألمانيا منها الآن ، والثمرة المرة الماحلة التي أنتجتها سياسة خاطئة قصيرة النظر انساقت وراء عاطفتي الانتقام والتشفي من المغلوب .

من ذا الذي كان يظن أن هذه الأمم التي خرجت من الحرب العظمى منتصرة ظافرة ، وأملت على خصمها شروطها المرهقة القاسية ، وافتنت في إذلاله وقص أجنحته والتضييق عليه ، ستكون بعد عشرين عاماً في موقف تتحاشى فيه الاشتباك بهذا الخصم وتتغاضى عن عنفه وعدوانه ، وتناشده الرحمة ورعاية حقوق الإنسانية ؟!

لم يفطن يوم فرساي إلا القليل من سديدي النظر إلى أن هذه الشروط الثقيلة المجحفة ستغرس في قلوب المقهورين بذور الحقد وتحملهم على إضمار الضغينة والاستماتة بالتكاتف

حتى تتاح الفرصة للأخذ بالثأر والانتقام للشرف المهان.

لقد كان لأخطاء معاهدة فرساى رد فعل سريع عواقبها قسوة وخطرة.

فهل يتعلم الناس من هذا الدرس أن العدوان والطغيان والإدلال بالقوة وفرض الشروط القاسية المجحفة على الضعيف ستكون لها عواقب خطيرة إن عاجلاً وإن آجلاً، وأن الظافر المنتصر أولا سيكون هو الخاسر أخيراً؟

هل تعظ هذه العبرة أقوياء اليوم وهم يترقون فى المهاوى التى انحدر إليها أقوياء الأمس، فيعلموا أن كل طغيان يحمل فى ثناياه الجراثيم التى تقضى عليه؟

لم لا يجرب الأقوياء وهم فى أوج قوتهم أن يكونوا منصفين لسواهم، وأن يتألفوا خصومهم بالعفو عند المقدرة؟ لم لا يجبرون كسر الأمم الضعيفة فيكسبون ودهم ويأمنونهم من العدوان؟ أكبر ظنى أن هذه الطريقة تكون أكفل بسيادتهم الأدبية، وبتدعيم الأسس الاقتصادية والثقافية على أسس كريمة من المودة والثقة، وتكسبهم من غير حرب ولا إذلال أكبر كسب تطمع فيه دولة من غيرها من الأمم، وهو حسن الصلات وتبادل الثقة والمحبة والاحترام.

* * *

درس آخر تلقيه علينا هذه الأزمة الحالية هو ما تستطيع العزيمة الوطيدة والجهود المنظمة والهمة العالية فى أمة أن تأتى به من العجائب فى أقصر وقت، فهاهى ألمانيا التى خرجت من الحرب العظمى مضعضعة القوى، متفككة الأوصال، مستنزفة الموارد، فاقدة الأمل، استطاعت فى بضع سنوات أن تسترد قوتها، وتسترجع ما اغتصب منها وتتحلل مما فرض عليها، وتحطم الأغلال التى قيدتها، وتوسع رقعة أراضيها فوق ما كانت عليه، وتتبوأ مكانة الزعامة الدولية، وتسيطر على أقدار الأمم ومصايرها، فأنى لها هذا، وكيف بلغت كل ذلك فى هذه الفترة الوجيزة؟

لقد صهرت المحن هذه الأمة، وعلمتها النكبات التى أحيطت بها أن لا أمل لها إلا فى نفسها، ولا فرج لكربتها إلا بجهودها الخاصة، فطهرت قلوبها من عوامل الفرقة والانقسام، وجمعت كلمتها ووحدت وجهتها وامتلأت ثقة بعبقريتها وبالقوى الكامنة فيها. وصدق إيمانها بعظمة جنسها، وبحقه فى أن يتبوأ مكانة سامية وينال نصيبه من حياة العزة والكرامة. فراحت تحشد كل قواها وتنظم كل جهودها، وخرج كل فرد من أفرادها عن كل ما زاد عن ضروريات عيشه، ورسمت لنهضتها خطة محكمة، ومضت فى تنفيذها بكل نشاط وهمة، وتخطت كل تردد أو ضعف فى سيرها فكتب لها النجاح!

وفى هذه النهضة القوية السريعة أكبر حافز لكل الأمم [illegible] على الجد والهمة والثقة بأن كل ما يبدو حلما من الأحلام ممكن التحقيق. ولعلنا نحن نستفيد من هذا الدرس تنظيم الجهود المبعثرة المشتتة، وجمع القلوب المختلفة المتنافرة، وشد العزائم الواهنة الفاترة، وإيثار الصالح العام على الصالح الضرورية الرخيصة، ولعلنا نستفيد من هذا الدرس أن أكبر أسباب النجاح فى نهضة الأمم إحكام الخطط وسرعة البت فى المسائل التى تعترض سير الأمة والقيام على تنفيذها بنشاط وهمة وإيمان قوى بالنجاح.

* * *

تعلمنا كذلك من هذه الأزمة أن الضعيف لا يشفع له يوم الخطر حقه، ولا تدفع الأذى عنه حجته، ولا تحفظه من الضياع ولاؤه ومسالمته لغيره، ولا يحفظه من النكبات ما قدم له من سوابق وعهود، وأن مصيره حاله إذا خشى على نفسه بعض الضرر، وأن جاره آكله إذا ألح عليه

الشر ، وأن الضعف وحده جريرة الضعيف وعذر القوى في الاعتداء عليه .

فإذا لم تكن مثل هذه الأحوال عبرة للضعفاء ونذيراً لهم بألا يعتمدوا عند الخطر على غير أنفسهم ، وحافزاً لهم أن يعدوا للشدائد ما استطاعوا من عدة ، وأن يتكاتفوا مع أمثالهم ، ويتخذوا من أحلافهم قوة — إذا لم يكن في الأزمة الحاضرة ما يهيب بهم أن يخلعوا عنهم ثياب الضعف ، ويتدرعوا بالقوة ، ويتكلموا أسباب المناعة ، فهم الجانون على أنفسهم .

لقد تبين لنا بجلاء مقدار ما فوتناه على أنفسنا فيما مضى من فرصة الاستعداد وأخذ الأهبة ، وجعلنا السياسة التي كانت تحول بيننا وبين استكمال أسباب القوة ، ولقد تنبهنا في اللحظات الأخيرة إلى ضرورة الإسراع ، وبذل كل ما يستطاع بذله في توفير وسائل الدفاع عن الوطن ، والسير فيه بكل همة ونشاط مهما تغيرت الظروف ، وتكون هذه الأزمة ، وكل علينا بما هيأت لنا من فرصة لاستكمال كل مقومات حياة العزة والكرامة والاستقلال .

* * *

وفي هذا الوقت الذي نرى فيه طرفي الخصومة يتصارعان في حرب كلامية ، هذا يدل بقوته ، ويتهوين لخصومه ، ويغلو في تصوير ما أعد لهم من مهلكات ، ويفتن في أساليب الفتك في العنف ، وإدخال الرعب في القلوب ، وذاك يصور الحالة اعتداء على الإنسانية وتحدياً لأساليب الديمقراطية ويؤلب الناس لمقاومة البغي والعدوان .

ومن قبل كان أسلوبهم في الدعوة جميعاً على هذا الأسلوب وخطتهم يقرر هذا المنطق .

ألا يعلمنا هذا الموقف الذي يقفه الضعيف بعد أن قوى واستقل ، والقوى بعد أن أخذ على غرة وفرض عليه على غير أهبة ، أن القوم جميعاً لا يجرون في سياستهم وراء مثل عليا ، ولا يحكمون مذاهب عالية ، وإنما يستغلون أساليب الضعف والقوة تبعاً لاستعدادهم وقوتهم ؟

ألا يساعدنا هذا معشر الأمم الضعيفة على أن نزداد فهماً لأساليب السياسة ، وأن نرى أن الوسيلة الوحيدة لأن نعيش مع هؤلاء الناس في أمن وكرامة ، أن نزيل أسباب الضعف فينا ، فنضطرهم جميعاً إلى تبديل أساليبهم معنا ، والانتهاء إلى خطة واحدة لا تغيرها ولا تغيرهم ، هي سياسة التعاون والتشارك وتبادل الاحترام ؟

وأخيراً أليس من مزايا هذه المحنة أن صيحتها العالية وضجتها الصاخبة قد هزت الأعصاب وأيقظت النائم وأثبتت القار وقوت الخائر ، وأهابت بالمستضعفين أن يكونوا عند حد قول القائل :

وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جبانا

محمد عبد الواحد خلاف

إلى الرسول الكريم

فى عيد مولده

للدكتور عبد الوهاب عزام

مضت عشر وأربعمائة وألف سنة منذ ظهر فى الجزيرة العربية نجم الصباح مبشراً بطلوع الشمس ، منذ طلع الكوكب المبشر بالغيث فى الأرض الجدبة ، منذ ولدت الأرض منبع النهر الذى فاض على الناس بالخير والبركة ولا يزال فيّاضا ، منذ سُطرت فى سجلّ الأيام بسملة سيرة عظيمة ، منذ كتبت على صفحات الزمان فاتحة كتاب وعته الشرق والغرب ، وصفحاته تاريخ البشر فى أروع وقائعه ، منذ خط الله القدير على رمال الجزيرة عنوان أعظم فصل فى تاريخ البشر ، منذ ولدت الجزيرة قانوناً من قوانينها فى صورة طفل ، الطفل الفقير فى دار من دور قريش بمكة ، منذ ولدت آمنة بنت وهب محمد بن عبد الله .

لم تُضرب البشائر لمولده ، ولا سارت الأنباء ، ولا تطايرت التهانى ، ولا احتشدت المحافل ! ولكن الله سبحانه كان يعلم ماذا أخرج من غيبه ، وماذا وضع فى أرضه . كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذى أعدّه ليُعلى التوحيد ويضع الوثنية ، ويعز الحق ويذل الباطل ، وينصر الخير ويخذل الشر ، ويمحو العبودية ويُثبت الحرية ، ويزلزل الجبارين ، ويثبّت الضعفاء والمساكين ، ويبطل التمييز بين الناس ، ويشيع المساواة بينهم ، ويحقّر الأحساب والأنساب ، ويعظم العمل الصالح ، ويحطم العصبيات ، ويدعو إلى الأخوة العامة .

كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذى يُخرج الحق من الصوامع والمعابد إلى معارك الحياة ، ويقيم الزهّاد بأسنة الملوك وأبهتهم بعد أن كان شيمة الفقراء والمساكين ، ويقيم الملوك فى صفوف الصلاة بعد أن كانوا فى صفوف الآلهة ، ويجعل الحياة جهاداً دائباً للحق والخير ، لا يضعف ولا يفتر ، ويُرى الناس كيف يجتمع الحق والقوة ، ويلتئم الملك والنبوة .

* * *

يا رسول الله ! أين نحن اليوم من شريعتك ؟ وأين الناس من هديك ؟ وأين سيرتنا من سنتك ؟

علمت البشر أن يكون خليفة الله فى أرضه ، يقوم بالعدل بين خلقه ، ويقسم الرزق بين عباده ، ويهيمن على قانون الله بين الناس أجمعين ، يقودهم إلى الحق طوعاً أو كرهاً ، ويسيّرهم للخير اختياراً أو اضطراراً .

فأين هو اليوم من هذه الخلافة ؟ أين عقله من هذه السياسة ؟ وأين نفسه من هذا السموّ ؟ وأين قلبه من هذا الطموح ؟ وأين عزمه من هذه الهمة ؟ وأين يده من هذا السلطان ؟ !

علمت البشر أن يقوم بالقسط لله ، ويجعل العدل بينه وبين الناس ، لا يبغى ، ولا يحتمل البغى ، ولا يظلم ، ولا يستكين للظلم ، ولا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يبخس حق نفسه ، ولا يأخذ ما ليس له ، ولا يعطى ما ليس لغيره . وتلوت عليهم قول الله :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء

بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

تلك الدعوة الشاملة ، والكلمة الجامعة . تلك سعادة الفرد والجماعة ، وثبات القانون والنظام ، وقوام المعاملة العادلة ، والألفة الدائمة . تلك الدعوة إلى أن يسيطر الحق والعدل ، وأن يكون الإنسان لله وللناس أجمعين ، لا لنفسه ومنفعته وهواه ، وأن يعدل الإنسان في الرضا والغضب ، والمنشط والمكره ، ومع القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، لأنه ينفذ قانون الله ، وليس عند الله قريب ولا أجنبي ، ولا صديق ولا عدو .

يا رسول الله ! لو أن الأمم المتناحرة التي عجزت عقولها وخربت قلوبها ، وقويت أبدانها وضعفت سرائرها ، وأنارت ظواهرها وأظلمت بواطنها ، بالنار حادت السبيل غاياتها ، وسيّرت الحق نزوات رغباتها وعصبيتها ، وحبها وكرهها ، ونفعها وضرها — لو أن هذه الأمم فقهت آيتك وعملت بها ، فقام كل زعيم بقسط الله في أرض الله بين عباد الله ، يستوي في نصفته القريب والأجنبي ، والقاصي والداني ، ويشكو إلى صدقه ونصحه الناس كافة ، لا يغش ولا يخدع ، ولا يختل ولا يجور ، ولا يعتدي ولا يظلم — لو أن كل زعيم أخذ بالعدل كل فرد من أمته ، وأخذ بالعدل نفسه ، وجمع الأمة كلها على العدل ، لعاشت الأمم مجاهدة في الحياة على شريعة من التناصف جامعة ، وخطة من العدل مؤتلفة ، وتعاونوا على البر بالإنسان وإسعاد الإنسان ، لا على التدمير والتخريب والقتل والأسر ، والغصب والنهب ، والاحتكام إلى النار ، والالتجاء إلى القوة . وويل للمغلوب ! ألا إن في العدل سعادة الفرد في نفسه ، وسعادة الأمة في جماعتها ، وسعادة الإنسانية في أجمعها .

يا رسول الله ! علّمت المسلم أن يكون حرّاً لا تخيفه جبروت ، ولا يأسره مطمع ، ولا تملكه الأهواء ، ولا تستعبده الشهوات ، يسير في الأرض قانوناً لا يُقهر ، وسنّة لا تتغير ، يستمتع بما علّمته به الحق . ثم الخلق والشهوات من بعد أهون من أن تُغريه ، وأحقر من أن تفتنه .

فما بال المسلمين تتنازعهم الأهواء فيتبددون ، وتتجاذبهم الشهوات فيتهافتون ؟

علّمت المسلم أن يكون مالكاً قنوعاً ، مسيطراً مقتصداً ، قادراً عفيفاً ، يملك الدنيا ولا تملكه ، ويستعبدها ولا تستعبده ، ويقدر عليها ولا يهلك فيها .

فما بال هؤلاء المسلمين تملكهم الأموال فهم عبيدها ، وتستعبدهم اللذات فهم صرعاها ؟ قد ملأت نفوسهم من الحرص والطمع والنهم والجشع ، ما لا تملؤه السموات والأرض ، جهلوا من حيث أرادوا العز ، وافتقروا من حيث حاولوا الغنى ، وشقوا من حيث توهموا السعادة !

يا رسول الله ! علّمت المسلم أن يكون عزيزاً لا يذل ، وأبيّاً لا يخنع ، وموحّداً لا يشرك ، يعبد الله وحده لا شريك له ، والناس من بعدُ سواسية ليس بعضهم أرباب بعض . فما بال هؤلاء الأذلاء الخانعين الذين يؤلّهون كل قوي ، ويخضعون لكل جبّار ؟

علّمت المسلم أن يكون طامحاً لا يكلّ ، دائباً لا يملّ ، يمضي في الحياة قُدُماً كالنجم لا يقف دون الغاية ، ولا تصدّه مشقة ، ولا يردّه هول ، ولا يقعد بهمّته شيء ، ولا يوهن عزيمته يأس ، طمّاحاً همّاماً ، علّاماً مقداماً .

فما بال المسلم يقعد ويحسب أنه يعبد ، ويكلّ ويظن أنه متوكل ، وييأس ويتوهم أنه يقنع ؟ حرّفوا كتابك ، وجهلوا آياتك ؟

يا رسول الله !

علمت المسلم أن يكون على الخطوب جسوراً ، وفي النوائب صبوراً ، كأنه في معترك الحياة قدر لا يرد ، وقانون طبيعي لا يتخلف . على شفتيه بسمة الرجاء في ظلام المحن ، وفي وجهه طمأنينة الثقة في مواسم الفتن ، وفي قلبه الثقة بالله واليقين بالظفر ، تنكشف عنه الأحداث كما تنقشع السحاب عن النجم ، وتنجلي الغمرة عن الدرة ، وينحسر الغمد عن السيف .

فما بال المسلم اليوم جزوعاً يائساً ، وخائراً مبلساً ؟

يا رسول الله !

وقفت في حضرتك ساعة فلا معنى من العلاء والعظمة والحرية والحق والخير والبر والفضيلة إلا نزل على قلبي ، ولا شبة من الاسفاف والباطل والشر والرذيلة إلا طارت عن نفسي !

وستبقى سيرتك نبراساً يعشو إليه الخابط في الظلمات ، وهديك مناراً يهتدي به الضال في الفلوات ، وشرعك علماً ينحاز إليه الأخيار ، ودعوتك أذاناً يصغي إليه الأحرار ، ورسالتك رحمة للناس أجمعين .

إن انحرف الناس فما انحرفت سنتك ، وإن ضلوا فما طمست شريعتك ، وإن حاروا فما خفيت سيرتك . وسيردهم إلى الطريق هديك ، ويهديهم إلى الغاية سيرتك ، ويرشدهم على الأجيال دعوتك .

ولن يزال مولدك هدى للناس وذكرى ، وموعظة وعبرة ، ودعوة لا تحول ، ونوراً لا يزول .

يا رسول الله ، صلى الله عليك

عبد الوهاب عزام

بسم الله الرحمن الرحيم

المستشرقون ورسالة الرسـول

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه أكرم الخلق على الإطلاق، وأجلهم مقاما، وأعزهم مكانا، وأعظمهم شأنا. كتب في عظمته صلى الله عليه وسلم المتقدمون والمتأخرون، فما بلغوا على اجتهاد المجتهدين منهم كفاء قدره، ولا جزاء فضله. لكن المتقدمين كانوا أكثر من المتأخرين توفيقا، وأقوم فيما كتبوا طريقا، وأصدق نظرا، وأكثر تحقيقا. وما بالمتأخرين قلة استعداد أو فهم، ولكن بهم غرور، وتقليد لعله أصل ذلك الغرور — تقليد المستشرقين فيما كتبوا، وفي النهج الذي سلكوا حين عرضوا للسيرة ينقدونها، وللرسول الأعظم — زعموا — ينقدونه. والنقد آفة من آفات الناس إن لم يفطن لها، هي شعور الإشراف والاستعلاء في الناقد؛ هذه الآفة يصبح قليلها كثيرا وصغيرها كبيرا حين يعرض الناقد في الموضوع العظيم الخطير؛ فإذا كان الموضوع هو أعظم المواضيع الانسانية قاطبة، وأكرمها وأخطرها عاقبة، كموضوع تناول حياة الرسول بالوزن، وشخصيته الكريمة بالتحليل — زعموا — والنقد، فإن الغرور القليل المغتفر مثله في غير هذا يصبح هنا جرما وإثما، ويفضي إلى الباطل حتما. فإذا اقترن غرور الاستشراق هنا باعتقاد المستشرق من البداية بطلان دعوى النبي المخالفة لدين المستشرق، فقد ركب الباطل باعتقاده هذا مركبا يحول بينه وبين لقاء الحق.

فمهما اجتهد المستشرق في بحثه بعد ذلك، فإن تلك المقدمة الباطلة التي بدأ بها كافية وحدها أن تضله وتخرج به من زور وباطل إلى زور وباطل. ومهما اجتهد في الانصاف بعد ذلك فتلك المقدمة التي اعتقد كافية وحدها لاقحامه في أقبح الظلم، وحمله على أكبر الإثم، وأي إثم أكبر من تكذيب نبي الله وخاتم الرسل عليه صلوات الله؟ من البدء بغير نظر ولا تمحيص، والقرائن وحقائق التاريخ كلها ما يلائم ذلك التكذيب؟ وأي ظلم في التقدير والحكم أقبح من نسبة الكذب إلى صاحب الدعوى الكبرى، دعوى الرسالة من الله، قبل النظر في دعواه، حتى إذا نظروا وواجهتهم أدلة صدقه صلى الله عليه وسلم من كل مجال، رأيتهم يستنقذونه من تهمة الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع في النفس؟ برأوه من تعمده صلى الله عليه الكذب على الله في دعوى الرسالة، ليتهموه بأنه صلى الله عليه مخدوع في نفسه، يعتقد أنه رسول وهو في الواقع غير نبي ولا رسول؛ أي برأوه هو واتهموا الخالق سبحانه الذي حقق كل ما ادعاه محمد بن عبد الله ولم يكذبه في جزئية واحدة في حياة النبوة الممتدة ثلاثة وعشرين عاما. فإن كان محمد فيما زعموا مخدوعا في نفسه، فكيف لم يكن مخدوعا أيضا في الناس، وفي القوى الطبيعية التي لا تخضع لتكهنات مخدوع ولا سلطان مخلوق؟ فالتطابق التام الذي كان بالفعل بين ما جاء به محمد وبين الحق الخارجي، والنتائج المحتومة اللازمة التي صارت إليها دعواه، وتصديقها له في كل ما ادعاه — هذا كله هو البرهان العلمي على أن دعواه صلى الله عليه كانت من صميم الحق، تتفق مع كل حق آخر في ميادين الفطرة التي لا حول للانسان فيها ولا قوة. وليس هناك بين الباطل والحق فرق أكبر أو أكثر من أن الباطل لا يصدقه الواقع، ولا توافقه السنن الفطرية في قليل ولا كثير.

لكن المستشرقين مثل دُرول الذين قالوا بصدق محمد

وكذب رسالته لم يكونوا يريدون إحقاق حق ولا إزهاق باطل ، وإنما كانوا يريدون التوفيق بين دلائل صدقه صلى الله عليه وبين تلك المقدمة التي أخذوا بها ، والتي لو سلموا ببطلانها لزمهم أن يخرجوا من دينهم ويدخلوا في دينه . وهذا بالطبع ما لم يكونوا ليفعلوه . فهم من أجل ذلك يمضون في سبيلهم يشككون فيما شاءوا أن يشككوا فيه من حقائق التاريخ — كما شككوا في أمّيته صلى الله عليه — من غير برهان ولا مبرر ، ما دامت حقائق التاريخ لا تتلاءم مع مقدمتهم التي جعلوها أساساً لبحوثهم . فلما عجزوا عن أن يشككوا في كل حقائق التاريخ ، وبقيت منها بقية صالحة استعصت على شكهم ، وتناقضت مع مقدمتهم التي اعتنقوا ، آثروا أن يفرضوا أسخف الفروض ليوفقوا بين مقدمتهم وبين الحقائق التي تكذبها . ومن هنا فرضهم الذي افترضوه من أن محمداً كان يعتقد حقاً أنه رسول الله من غير أن تكون رسالته نفسها من عند الله ! أي أنه في زعمهم كان واهماً مخدوعاً في اعتقاده ذلك ! يزعمون ذلك ثم لا يسألوا أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد صلى الله عليه آلاف المرات في نحو ثلاث وعشرين سنة من غير أن يتبين خطأ نفسه أو يتبين أتباعه خطأه ؟ ثم كيف أمكن أن يتفق توهمه مع الحقائق الخارجية في تلك السنين الكثيرة وهو صلى الله عليه في حياته النبوية في قرابة ربع قرن لم يكن معتزلاً العالم في صومعة ، ولكن كان في معمعة الحياة يدعو الناس ويحاجهم ، أو يهديهم ويشرع باسم الله لهم ؟ ثم هم لا يسألون أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد أن القرآن بأنه كلام من عند الله منجماً في تلك السنوات التي تزيد على العشرين في ظروف ليست من صنعه صلى الله عليه ، ثم يكون ذلك الكلام معجزاً لفصحاء أمته ، يتحداهم بإعجازه وهم خصومه فلا يملكون لإبطال ذلك التحدي شيئاً ، مع أنه لم يتحدهم إلا بسورة من مثله ، وفي سوره الكريمة ما لا يزيد على ثلاث آيات قصار !

والعجيب الغريب في أمر أولئك المستشرقين الذين يكذبون رسالة محمد مع إقرارهم بصدقه هو أنهم يرون القرآن بين أيديهم ينسبه محمد إلى الله سبحانه ، وضمير المتكلم فيه فيما ليس بحكاية راجع لا إلى محمد ولكن إلى الله سبحانه ، والخطاب فيه موجه تارة إلى محمد وتارة إلى الناس ، وكثير مما خوطب به محمد صلى الله عليه مسبوق فيه بأمر التبليغ ، بكلمة « قل » ، والآيات الكثيرة التي يرجع ضمير المتكلم فيها إلى رب العزة سبحانه لا يمكن أن يتوهمها كاذب يجهل أنه كاذب ، كما زعم أقرب المستشرقين إلى الإنصاف ! في القرآن آيات مثل : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، ومثل : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذاباً أليماً » ، ومثل : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » ، ومثل : « فكلاً أخذنا بذنبه : فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، ومثل : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ، ومثل : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » — هذا وأمثاله في القرآن ، بل القرآن كله لا يمكن ، لو كان الإتيان بمثله في طاقة البشر ، أن يتوهمه متوهم وينسبه إلى الله كذباً من غير أن يعلم في قرارة نفسه أنه كاذب . ومع ذلك فأولئك المستشرقون الذين يزعمون أنهم علميون في نظرهم وفي بحثهم ، والذين تضطرهم حقائق التاريخ أن يقروا بصدق محمد في اعتقاده رسالة نفسه ، يفضلون أن يجمعوا بين المتناقضين بالقول بصدقه وكذب رسالته في آن واحد ، على أن يستنتجوا النتيجة الحتمية اللازمة فيقولوا بصدق رسالته ما داموا لا يجدون مفراً من القول بصدقه وباعتقاده حقاً في رسالة نفسه وإعلانه حقاً أن القرآن من عند الله .

ولم يكن يحق من المستشرقين المكذبين أن محمداً

صلوات الله عليه كان يأتيه القرآن حين يأتيه في غيبوبة عن الدنيا ، فإذا أفاق منها صلى الله عليه تلا على الناس القرآن ، يقول إن الله أوحاه إليه في غيبوبته تلك ، وتحدى مكذبيه أن يأتوا بسورة مثله . لم يكن يخفى على المستشرقين تلك الحال الخاصة التي كانت تلازم نزول القرآن أو توهم نزوله كما يأفكون ، ولم يكن يخفى عليهم عجز العرب قاطبة عن تحديه وعن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة فيه ، ومع ذلك لا يجد أقربهم إلى الإنصاف ما يقوله في تفسير هذا كله إلا أن محمداً كان مريضاً بنوع من الصرع ! كما يقول درمنجم وكما يقول إرفنج . وليس في الحق أخرق من الإتيان بمثل هذا القول تفسيراً لمثل تلك الحقائق ، إذ ليس في الأرض عاقل لا يعرف أن المرض حالة ضعف لا حالة قوة ، وأن من المستحيل أن يأتي إنسان في غيبوبته بما لا يستطيعه هو ولا أحد من الناس في حالة صحوه وتحرزهم ، وقوته وقوتهم . ومع ذلك فقد آثر أمثال هؤلاء المستشرقين أن يأتوا بذلك التفسير ظاهر السخف والبطلان ، عن أن يقولوا بالنتيجة المنطقية الحتمية ، الأوهي أن القرآن من عند الله حقاً وأن محمداً حقاً رسول الله .

فالنبي صلوات الله عليه لم يلق ممن لم يؤمن من المستشرقين إلا ظلماً ، وإن تفاوتوا بينهم في مقدار ذلك الظلم . ولو كانوا ينكرون الأديان قاطبة ، ولا يعترفون بوجود الأنبياء والرسل ، لكان ذلك مفهوماً منهم إلى حد ما . لكنهم يدينون باليهودية والنصرانية ، ويؤمنون بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان . فليت شعر العلم والعقل ، ماذا في الإسلام أو في القرآن يجعلهم ينكرون نبوة محمد خاصة في الوقت الذي يؤمنون فيه بأنبياء كتب العهدين ؟ بل وفي الوقت الذي يقر أكثرهم فيه بالوهية عيسى صلوات الله على نبينا وعليه ؟

لكنهم مستشرقون ، ومستشرقون على الطراز العالمي الحديث !

محمد أحمد الغمراوي

دُنَّا ڤيـــلاتا

للمصور الإيطالي رفائيل سانتي

بقلم الدكتور زكي محمد حسن

عاش رفائيل (Raphael Santi) بين عامي ١٤٨٣ و ١٥٢٠ ، وكان في حياته القصيرة مصوراً ورساماً ومثالاً ومهندساً ؛ ولكنه برع في النقش والتصوير حتى صار علماً من أعلام إيطاليا الثلاثة ؛ بل لقد امتاز في كثير من النواحي على زميليه ليوناردو دافنشي وميخائيل انجلو .

ولد في أربينو من أعمال إيطاليا الوسطى ، وكان أبوه مصوراً لقّنه مبادئ الفن . وظهرت مواهب رفائيل وهو صغير السن ، ثم درس على المصور البارع بيروجينو ولكنه لم يلبث أن تفوق على هذا الأستاذ ، ثم ذهب إلى فلورنسة فانتفع برؤية ما أنتجه ليوناردو وميخائيل انجلو وترك النقل والتقليد وبدأ يستوحي الطبيعة نفسها ، واتصل بأعلام المصورين في فلورنسة ، مدينة الفن .

على أننا لا نريد في هذا المقام أن نعرض لتاريخ حياته أو لآثاره الفنية المختلفة ، وحسبنا أن نكتب عن مسألتين :

الأولى : هناءته وسعادته واعتقاده في الجمال وشعوره الفطري به ، مما جعل صورة العذراء معرضاً لأعظم النساء جمالاً وأوفرهن ملاحة وأنوثة .

والثانية : تفوقه وامتيازه في التصوير من وجهة الفن والصنعة ، فقد بلغ الكمال في هذا الميدان ؛ وكان يعنى به أكثر من عنايته باختيار الموضوع أو نبل الفكرة . أجل ، إن بعض آثاره الفنية في فجر حياته كان ينقصها شيء من الحياة والحركة ، كما نرى في صورة «رؤيا الفارس» وهي محفوظة الآن في دار الصور الأهلية بمدينة لندن ؛ ولكن رفائيل لم يلبث أن تخلص من تأثير أستاذه بيروجينو في هذا الميدان ومضى يصور اللوحات الفنية التي سجلت له السيادة في درس الجسم الإنساني وملامح الوجوه ، وقادته إلى الشهرة ، حتى تهافت عليه رجال الكنيسة وطلاب الصور الفنية في مسقط رأسه وفي فلورنسة ، ثم في روما حيث عنى كثيراً بالمباني القديمة وأثنياً لقاؤها الأثرية ، ورسم في قاعات الفاتيكان صوراً غاية في الإبداع وجمال الألوان والاتزان وسمو الخيال .

وقد رسم رفائيل — على قصر حياته — عدداً كبيراً من اللوحات الفنية ، سوف نعود إلى دراسة بعضها في أعداد الثقافة . أما التحفة التي نحن بصددها اليوم والتي يرى القارئ صورتها في الصفحة المواجهة فمحفوظة في قصر بتّي Pitti بفلورنسة ، واسمها «دُنَّا ڤيلاتا» أو السيدة ذات النقاب Donna velata ، وتمثل سيدة من نساء روما ساعها الله جمالاً ساحراً ، عرف رفائيل كيف يظهره في وجهها النسم ، في نظرها ، وعزمها وأملها . ولا ريب في أن جمال مظهر هذه السيدة وشعورها الفطري بجاذبيتها — ذلك الشعور الذي لا تخفيه نظرتها الهادئة — ثم ثوبها الثمين وسترها الذي يغطي رأسها ويسقط في اتزان وحرية ، كل هذا يكسب اللوحة قيمة فنية لا تفضلها قيمة الآثار الفنية الكلاسيكية بما فيها من دراسات عميقة لجسم الإنسان وثنايا الملابس وطياتها .

والواقع أن صورة هذه الحسناء لا نجدها في هذه اللوحة فحسب ، بل لعلها العذراء التي رسمها رفائيل في لوحته المشهورة «عذراء سان سيستو» المحفوظة في متحف درسدن ، ولعلها أيضاً إحدى السيدات المرسومات في صورته «القديسة سيسيليا» وهي اللوحة المحفوظة في متحف «بولونا» بإيطاليا .

ومهما يكن من الأمر فهي من خير الأمثلة التي تدل على براعة رفائيل في رسم الصور الشخصية الكاملة ببساطتها وبما فيها من حياة وقوة تعبير .

زكي محمد حسن

في محاكاة الشعر الفارسي

للدكتور محمد عوض محمد

كان صديقنا « يسار » مغرماً بالشعر الفارسي قبل أن يطالع منه بيتاً ، معجباً بشعراء إيران ، ولم يرد عنه بهم عن الإلمام بأسماء بعضهم . وكان ، مع هذا ، واثقاً أشد الوثوق أن الشعر الفارسي من أرق الشعر شكلاً وموضوعاً .

قرأ وهو تلميذ بالمدرسة بيت البارودي في وصف حافظ إبراهيم :

تالله ليس لحافظ من مشبه
في الشعر غير سميه الشيرازي !

فظل يحدث نفسه بأن حافظاً الشيرازي هذا لابد أن يكون شاعراً عظيماً ...

ثم علم عن طريق الصدفة أن أوزان الشعر الفارسي لا تختلف كثيراً عن أوزان الشعر العربي ، فبات ليلته لا يكاد ينام من شدة الفرح : إذن سيستمتع القارئ ، حين يطالع الشعر الفارسي بتلك الأنغام العربية المحبوبة ، لا بتلك الأوزان الأفرنجية النافرة ، التي لا تعرف معها متى ينكسر البيت ، ومتى يستقيم ! وهل يعرف أجلاف الأفرنج معنى لانسجام الوزن وموسيقاه ؟ إن حركات العربة (الكارّو) المثقلة بالطوب والحجارة في شارع مرصوف بالحجر والحصا لأكثر انسجاماً من أوزان شكسبير !

وهكذا ظل الفتى « يسار » يحدث نفسه ، وهو التلميذ يكتب الشعر العربي على غلافات كراسات الحساب والهندسة والجبر ، وعلى هامش الكتاب الرابع لقواعد اللغة العربية ، بأن الشعر العربي عامة ، وشعره هو خاصة ، سيناله شيء غير قليل من الطرافة والجدة ، متى أدخلت فيه الأساليب الفارسية .

ولم يكن بد من أن يسمع باسم عمر الخيام والفردوسي ، وأن يطالع بعض أشعارهم في لغة الانكليز ، فعقد النية على أن يتعلم اللسان الفارسي حين تسنح له أول فرصة .

* * *

قال الراوي : وكان ذلك في وقت حرب عظيمة لم ير العالم لها مثيلاً ، وكأنما أرادت السلطات ذات الأمر النافذ في أمثاله من الضعفاء ، أن تيسّر لهذا الفتى أمنيته ، وتحقق له حُلمه . فأودعته مُعتقلاً حصيناً ، تحيط به القلاع الشاهقة ، والأسلاك الشائكة ، ومن حوله الأسوار والمتاريس ، والحراس ذوو العيون الوقحة ، والبنادق المحشوّة ، والرصاص الذي ينطلق بمناسبة ، وبغير مناسبة .

ولكن الحرب ، مع وجود هذه الموانع القوية أمر لا يعين على صحة الجسم ولا صحة العقل ؟ فلم يكن بمستغرب والحال هذه أن ينكب « يسار » على دراسة اللسان الفارسي ، على أساتذة من الهند كانوا نزلاء نفس الدار ، وكانوا على حظ عظيم من العلم والكرم والتقوى .

ولن تستطيع أن تتصور كيف أقبل « يسار » على تعلم الفارسية ، وبأي حماس ونهم وشره ! ولا بد لك ، لكي تفهم هذا ، أن تتصور رجلاً قطع الصحراء الغربية من ليبيا إلى مصر سعياً على قدميه ، دون أن يأكل أو يشرب ، ثم ألقى نفسه في فندق « مينا » أمام مائدة مكللة محملة بأطايب الزاد والشراب ، والورد والريحان ، وقد بُذلت له كلها بذلاً — مجاناً — من غير أدنى مقابل ! فماذا عساه يصنع ؟ ليس من شك في أنه لن يتردد طويلاً ! بل ليس بعجيب أن تراه ينقض على المائدة انقضاضاً ، قد يضره فيه إسرافه ، لو أن المائدة مائدة طعام وشراب . ولكن مائدة الأدب ليس فيها إسراف ،

ولا يخشى من الانكباب عليها وصب ولا ألم .

وهكذا أتيح لصديقنا أن يحقق أمنيته وأن يلتقى وجهاً لوجه بالسعدى وحافظ والفردوسى والخيام ، وغيرهم من بلابل إيران الصادحة وطيورها الفريدة .

* * *

ثم دارت الأيام دورتها ، وأخذ اسم يسار يظهر بين أدباء هذا الجيل ، ظهوراً ضئيلا ، وكأنما يمشى بين الناس على استحياء ، وأخذ يذيع الشىء القليل من شعره اليسير . ولم أفكر فى أن أبحث عن أثر الشعر الفارسى فى كتابته . حتى إذا جاءت هذه الأيام ، التى أخذنا فيها نعنى بإيران وشعر إيران ، حدثتنى نفسى أن أستطلعه عن أثر هذا الشعر فى نفسه وفيما نظم أو نثر . ودار بيننا الحوار الآتى :

ع : هل استطعت يا يسار أن تحاكى الشعر الفارسى فى بعض أشعارك العربية ، كما كنت تشتهى أيام كنت وأنت فتى غر جاهل ؟

ى : لا زلت مصراً على رأيى الذى كنت أراه وأنا غر جاهل ، بأن تطعيم الشعر العربى بالشعر الفارسى يزيده حسناً ، ويدخل فيه أساليب جديدة .

ع : لا تراوغ فى الإجابة ! إنى أريد منك أمثلة ملموسة محسوسة لقطع من الشعر حاولت فيها محاكاة شعراء إيران .

ى : الذى لدى من هذا قليل ، ولست أحرص على إذاعته ، ولكن تقصيرى فى هذا لا يمنع أن يتبع غيرى ممن هم أطول باعاً ولساناً وعلماً .

ع : لا بأس عليك من هذا ، والحديث الذى بيننا لن يطلع عليه أحد ، فهل كان تقليدك للشعر الفارسى فى الأسلوب والصيغة ، أو فى المعانى والموضوعات ؟

ى : لم أحاول سوى محاكاة الأسلوب ، وعلى الأخص فى بعض نواحيه . فقد أعجبنى مثلا عند الفرس إطالة البيت بحيث يكون — فى بحر الرمل أو الهزج مثلا — مكوناً من ثمانية أجزاء ، بدلا من ستة أو أربعة كما هى الحال فى الشعر العربى . هذه الإطالة تبيح المرء أن يضمن البيت الواحد معنى كاملا . وبهذا يصبح البيت وحدة مستقلة ، مشتملا على فكرة كاملة .

وقد سبق لى أن أنشدتك قطعة لى من هذا الطراز أولها :

لم تزل فى القلب من حبك يا ليلى بقية
فاحذرى لا تقتليها ، فهى بالعيش حرية !
آه مهما قد لقينا — أنا والحب كلانا —
منك حتى كدت أن أقضى عليه وعليه !

أما الناحية الثانية التى حاولت فيها محاكاة الأسلوب الفارسى ، فهى ما يسمى عندهم « الشعر المردف » ، وهو الذى ينتهى فيه كل بيت من القصيدة بكلمة أو عبارة تتكرر فى آخر كل بيت ، ويسمونه الرديف . أما القافية التى تجرى عليها القصيدة فتسبق هذه الكلمة أو العبارة مباشرة . وقد أعجبنى من هذا الأسلوب أنه يكسب القصيدة رنة من الموسيقى ، كالنغمة الثابتة التى يعود إليها المنشد كلما طاف فى الآفاق ، وحلق فى جو السماء .

ع : فماذا لديك من الشعر العربى المردف ؟

ى : طالعت كثيراً من الشعر المردف فى الفارسية قبل أن تخطر لى محاكاته فى العربية ، إلى أن أطلعنى أستاذى قصيدة لحافظ الشيرازى آخرها كلمة عربية وهى الغياث .

وهذا مطلع القصيدة :

الغياث ، أى مايه جان الغياث
كفر زلفت برد إيمان الغياث !
ما همه لب بسته ايم از تشنگى
بر لبانت ماء حيوان الغياث !
در هواى بوسه جانى ملتمس
مى كنند اى دلستانان الغياث !

وترجمتها إن كان لا بد من ترجمتها :

الغياث يا متعة النفس الغياث !

إن كفر(١) عساك دعت بالمعالي؟ الثبات!
ما بال شفتي قد جمدنا من شدة الظما
وفي شفتيك ماء الحياة؟ الثبات!
إن سالبي القلوب عزلا
يطلبون روحي غيا — الثبات!

فعندما طالعت هذه القصيدة ووعيتها خطر لي أن من الممكن مقابلتها بشعر عربي يحتفظ فيه بالكلمة الأخيرة. ولكن لم يكن بد من اختيار قافية أخرى.

ع: والنتيجة؟

ى: النتيجة قطعة ليست بذات شأن، ولا أحب المحاولة الأولى، ومطلعها:

أرسلت عيناه سهما — الثبات!
قد رمى القلب فأصمى — الثبات!
إن يك السهم من اللحظ فـ[illegible]
[illegible] الحب [illegible]
مستهام شفه طول [illegible]
يشتكي من [illegible]

ع: فهل لديك سواها؟

ى: بعد ذلك أخذت أختار الروى من بين الألفاظ العربية، التي تلائم هذا الطراز، وقد تكون القطعة الآتية أقل فشلا من الأولى، وعنوانها: تعال!

حان حيني! يا منى نفسي تعال!
يا حياة الروح والحس تعال!
أنا ميت من غرامي فإذا
شئت أن أحيى من رمسي تعال!
وتعالى الفجر لمن قد رأى
غربتا الهم واليأس تعال!
مغرم يصبح في بحر الجوى
لا يدعه في الجوى يمسي تعال!
لم يدع لي الحب صوتاً مسمعاً
وإذا أدعوك بالهمس تعال!
يا جميلا خالقه رب الورى
فتنة للجن والإنس تعال!
قلت لي: إن جئت [illegible]!
لا على العينين والرأس تعال!

ع: أظن أن هذه القطعة لو هذبت وصقلت لما كانت... فهل لديك سواها؟

ى: هذه قطعة أخرى في حاجة إلى الصقل والتهذيب وأولها الأبيات الآتية:

يا إله الحسن هذا الظلم في الدنيا لماذا؟
عن هواك وعنا منع السقيا لماذا؟
[illegible] لا ترى أنا نلتقي في يقظة
لم تأبى أن نرى وجهك في الرؤيا لماذا؟
[illegible] في جنو الأماني
[illegible] ولا يبلغ العليا لماذا؟
يشتكي من [illegible] الحب حياة وردى
لم [illegible] أن يردى ولا يحيا لماذا؟

ع: عظيم جداً! وأعجب من هذا كله أن الشعر الروسي قد صيرك — وأنت ذلك البارد البليد — عاشقاً مشبوباً وعاشقاً مغرماً: حقاً أن حافظاً الشيرازي قد أتى بالمعجزات.

ى: لولا أنك تظلمني دائماً، لذكرت أن ليس هذا من شعر النسيب، ولكنه من شعر التصوف على طريقة شيخنا الحكيم لسان الغيب حافظ الشيرازي.

والآن دعني من حديث الشعر والأدب، فإني منهمك في إعداد مشروع لتجنيد رجال الجامعة للدفاع الوطني، وعلى رأسهم لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين.

قال الراوي: فانصرفت عنه، وأنا أرجو للدفاع الوطني نجاحاً أتم من نجاح الشعر الفارسي.

(مثلق الأصل) **محمد عوض محمد**

(١) كثيرا ما تنعت السواد بالكفر كما يقال الخال كافر. وهذا كثير في الشعر الفارسي.

من ذكريات الحج

للأستاذ عبد الحميد العبادي

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت في الآفاق شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ؛ فكنت في كل أسفاري السابقة أشعر ، من شدة تعلقي بأهل بيتي وأولادي وخواص شئوني ، كأني تاركت قلبي ورائي ، فكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولكني عندما يسّر الله لي في العام الماضي حج بيته العتيق ، وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأني عجباً من العجب ! لقد شعرت كأن قلبي أمامي ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفتٌ إلى الوراء ، ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجهٌ إلى الأمام ، واندفاع بل انجذاب نحو البلاد التي تركت من أجلها من أحب وما أحب [illegible] نفسي ، وكنت مريضاً موعوكا ، وكان الطبيب [illegible] لي ما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله في ذلك النسيان .

***

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو الشرق ، وما هي إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، وبرزت لنا قمم جباله ، حتى غمر الركب مزيج من الوجد والهيام يعرفه العشاق المتيمون ، ويعرفه القريبون الواصلون من الصوفية .

وحاذت بنا السفينة رابغا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فما هي إلا سويعات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا : أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، ورءوس مكشوفة عارية ، ووجوه وضيئة مستبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر في الركب جلال أي جلال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم وقار السن جلال التقى فزادهم روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلتهم مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف !

***

وما برح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقبلتنا السيارات تؤم مكة أم القرى . فبلغناها في الهزيع الثاني من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو نحس نصباً ، على بعد [illegible] وتواصل الحركة ، وامتناع النوم إلا غرارا فوق [illegible] السفينة أو [illegible] على ظهر السيارة . ورأيت بعيني [illegible] البلد الأمين ، بعد أن رأيت الحديبية ، [illegible] ، وغار ثور ، وغير ذلك من المعاهد التي [illegible] في أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه وبأسائه ، ذكريات ذلك النضال العظيم الذي كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادي والوثنية الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، ثم ذكرى ما احتمله الرسول وعصابته القليلة في سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ، وأن يدع آخر الأمر من الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذي أعد لنا بأعلى مكة ، فقذفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا نؤم الحرم للطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة . وإني لا أنسى مشهداً وقد انتظمنا موكبا واحداً وأخذنا نتحدر من المعلاة في جوف الليل البهيم ونسير رويداً رويداً ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف ملبياً بصوته الأجش ، فنردد عنه التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتتجاوب بأصدائها جنبات الطرق وتمضي صعداً في السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ،

ومنه عرفت كيف تسمو الروحانية في الإنسان عن الدنيا حتى استغرقته الفكرة السامية وتولاه الإيمان العميق.

ثم يقف الطواف ويقف الموكب لوقوفه، وإذا بنا قبالة باب عظيم من أبواب الحرم المكي الكبير، وتحبس الأنفاس، وتجب القلوب، وتحد الأبصار، كأنما تريد أن تلقف نظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذي كان يضم في تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود. وكنت قد قرأت في بعض الكتب وصف الحرم المكي فلم يشق عليّ أن أتبين معالمه لأول نزولي فيه. فهذه الكعبة مؤزرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد ووسطه. وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه، وهذا حجر إسماعيل، وهذا المطاف من حول الكعبة يضايق الطائفين فيه تدافعاً، وهذا مقام إبراهيم، وتلك زمزم يرده الطائفون ويشربون منها عللاً بعد نهل، وهذا بناء المسجد من حول ذلك كله. والمسجد مسقوف على حواشيه، وأما سائره فسقفه السماء وفرشه الحصباء، وتطل عليه جبال أبي قبيس وقيقعان والصفا والمروة.

وإنها لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً، واحتفلت فيها مظاهرها الرائعة احتفالاً، قد تجلت فيها السماء بنجومها وكواكبها، والأرض بسهلها وجبلها، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة. فآناً شمس طالعة، وآناً قمر بازغ، وآناً نجوم متألقة. وآناً حر لافح، وآناً برد قارس. وآونة جفاف تتقاصى منه الشفاه، وأخرى سيول دافقة تنحط من أعالي الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها، وآناً سماء مصحية وجو طلق، وآناً سحاب مركوم، ورعد مجلجل، وبرق خاطف.

كم للتعبد في هذه البقعة بمنى من معاني التوجه المباشر إلى الواحد القهار المسخر لقوى الطبيعة، والمصرف لها على هذا النحو الذي لا يحتمل جدلاً ولا مراء! وكفى بهذا التعبد باعثاً للعبد على الإنابة والإخبات والخشوع، وكفى به مشعراً لقلبه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه، وأنه إنما هو ذرة في محيط هذا الوجود الذي لا يسبر الوهم غوره، ولا يدرك الخيال مداه. هنا يجد الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام ما يُعرف في الفن الرفيع والأدب العالي بالعظيم والجليل حساً ومعنى!

* * *

إذا كان الحرم المكي يوحي إلى النفس بعض ما هو قوي ورائع وجليل، فإن الوقوف بعرفة — وهو أهم مناسك الحج — يوحي آخر ومغزى عظيم الشأن.

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلومتراً، ويشرف على هضبة مترامية الأطراف، ويرحل الحجيج إلى مشارفه ويضربون خيامهم، معهم أزوادهم ورواحلهم التي تحملهم. فإذا كان عصر يوم الوقوف بعرفة يخرجون من خيامهم فيصعدون إلى الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه، ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من حياتهم بيضاء يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم. ولقد وقفت بعرفة مع الواقفين، ودعوت الله مع الداعين، وأشهد أن المنظر رائع بل هائل! وأي منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء ولكن من خلائق تموج بعضها في بعض، فتحس لها هيمنة البحر المحيط أو الجيش اللهام الواسع متكتلاً ملقى السلاح، وكل مقر بالضعف، معترف بالعبودية، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها، فلا فاضل ولا مفضول، ولا سيد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضيع. لقد جاءوا الله كما خلقهم، وكما سيبعثهم، وكما ينشئهم النشأة الأخرى

لقد ربوا أنفسهم فى ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التى يتساوى فيها الناس جميعاً ، وعلموا أن مشوا إلها متاع الغرور .

* * *

وإذا كان الحج بركنيه التطبيقى من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة ومن معانى الجلال والبساطة ، فإن فى الحجاز متهداً ثالثاً ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس ، ولكن شهوته واجب على المسلم فى شرعة الذوق السليم على أقل تقدير . ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة . ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا ، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يحرقنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحى عند توجهنا إلى مكة . لقد كان الشوق الأول شوقاً إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير ، أما الثانى فكان شوقاً إلى المعلوم غير المجهول ، إلى إنسان أثير حبيب .

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام ، فهو حبيب إلى الله [illegible] رسالته ، وهو حبيب إلى الإنسانية بما [illegible] صنيع باق على وجه الزمان .

شارفنا المدينة فتوارت عن الأنظار أحداث ذلك الطفل الذى بعد فى مقدمة البلدان التى أثرت فى تاريخ العالم أبلغ التأثير . ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة ، وعدت روما عظيمة بما أبدعت فى عالم السياسة من دولة فخمة ، فإن المدينة عظيمة بالأمرين جميعاً ، وكفاها فخراً أنها مهد المدنية الإسلامية والدولة العربية ، ومثوى محمد بن عبد الله .

وطفقنا نتجول فى خطط المدينة وطرقها الضيقة الكثيرة ونمشى بين ربوعها القديمة وعظمة الماضى ونتعرف معالمها ومعاهدها : هنا بركت ناقة الرسول لأول قدومه المدينة ، هناك المسجد الذى بناه أبو بكر ، تلك آطام اليهود ، هذا أثر الخندق ، ذلك جبل أحد ، تلك سقيفة بنى ساعدة ، هذا البقيع ، وهذا مهوى الأفئدة ومحط الرحال ، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف . ألا لقد رأيت فى أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب ، وأشهد أنى لم يأخذنى شىء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عندما وقفت حيال قبر الرسول العربى . إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان . أما عظمة محمد فمطلقة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل . أولئك وردوا وشالا تحت أقدامهم دون متناول أيديهم ، وأما محمد فورد بحر الحقيقة الطامى وسر الوجود الخالق فنهل وعل . أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث ، وأما محمد فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية ما بقيت الأرض والسماء .

والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة . وقد ترسم الطابع الذى كان له على عهد الرسول ، طابع منزل الرسول ومجلس الرسول ومسجد النبوى . فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى منزل صديق حميم أو أخ كريم . كل شىء فيه يبعث فيك [illegible] معانى الرحمة ، وأنت فى جو من الثقة على حد تعبيرنا ، وتلك المحاريب العالية تتدلى منها الثريات الوهاجة ، وتلك الأعمدة [illegible] ، وتلك النقوش الذهبية تغشى الجدران ، وتلك المحاريب الأثرية المقدسة ، وتلك القبة الشامخة فى السماء ؛ كل ذلك فيه معنى الألفة ومعنى الأنس ، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان الصادق والإنسانية الصحيحة . الحرم المكى يرينك معنى الإله والألوهية ، والحرم المدنى يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما فى المدينة جميل : جمال فى الطبيعة تعرفه فى الماء والزرع والسهل والجبل ، وجمال فى الخلق تعرفه فى دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم الأنصار رسول الله قبيلاً وعطفاً فى حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث فى المسجد وفى الذكرى التى يثيرها ، جمال فى جمال فى جمال .

* * *

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعرفة ، والجمال بالمدينة . ولست أعرف قطراً آخر أجمع لهذه المعانى الثلاثة من الحجاز .

عبد الحميد العبادى

واجب الأخصائي الاجتماعي إزاء المجتمع*

وواجب المجتمع إزاءه

للدكتور محمد عبد المنعم بك رياض

واجبات الأخصائي الاجتماعي نحو المجتمع متعددة، وتختلف باختلاف الميدان الذي يعمل فيه — أذكر أن حضرة صاحب العزة المشتوى بك وكيل وزارة المعارف العمومية ومن قادة الأخصائيين الاجتماعيين في مصر، قد قسم ميادين الخدمة الاجتماعية إلى ميدان: إنشائي (Constructive) وهو الذي يعمل فيه الأخصائي الاجتماعي لإقامة نوع جديد من الخدمات الاجتماعية أو تنظيمها، وإلى ميدان علاجي (Curative) وهو الذي يعمل فيه الأخصائي لفحص الحالات التي تحتاج [illegible] وميدان وقائي (Preventive) وهو الذي [illegible] من الشرور التي تصيب أهله وتدفعهم إلى [illegible] المرض — هناك تقسيم آخر لواجبات الأخصائي الاجتماعي، فإن هذه الواجبات إما أن تتعلق بأحوال فردية وإما أن تتعلق بجماعات. ففي الميدان الفردي يقوم الأخصائي الاجتماعي ببحث الأفراد الذين يعني بهم واحداً واحداً، ويعمل على أن يعالج كلا منهم مع النظر إلى الوسط الذي يعيش فيه، فيلائم بين حاجة الفرد وحالة بيئته — ويدخل في هذا النوع الأعمال المتعلقة بتحسين حال الأسرة، وبإنقاذ الطفولة المهملة والتعليم. وأقصد بالتعليم هنا التعليم الفردي، أي إعطاء قسط من التعليم يتناسب مع حالة الطفل أو التلميذ، فإن كانت به عاهة مثلا أو كان غير ناضج أو كان شاذاً استقصى سبب نقصه أو شذوذه، واتبع في تعليمه الأسلوب الذي يلائمه. ويدخل أيضاً في النوع الفردي أعمال الزيارة الصحية التي يقصد بها درس حالة كل مريض ومعرفة سبب مرضه ومنع تفشيه، وأعمال الفحص العقلي أو النفسي، وأعمال رعاية الأحداث وحمايتهم من عوامل الفساد أو التشرد، وهداية المجرمين حتى يتنكبوا طريق الإجرام. أما ميدان الجماعات فهو الميدان الذي يواجه فيه الأخصائي الاجتماعي حالة رهط من الناس أو جماعة من [illegible]، كأن يتولى تنظيم نادٍ أو رحلة أو يشرف على التغذية أو الرياضة أو الصحة في منطقة أو حي أو مدرسة، [illegible] هيئة اجتماعية. ويدخل في هذا [illegible] يشرف عليها بالانتساب إليها، [illegible] الاجتماعية، فإن من الأغراض الأساسية التي أنشئت من أجلها وضع برامج جديدة لأعمال الإصلاح الاجتماعي وتنسيق الأعمال الاجتماعية المختلفة والإشراف عليها.

لذا كان لاشتراك الأخصائيين الاجتماعيين في مثل هذه الهيئة فائدة كبرى لهم وللمجتمع، فهم يستفيدون من اتصالهم ببعضهم البعض، ومن اتصالهم بالهيئات والأفراد الذين يعملون على علاج المجتمع أو على توجيهه التوجيه الحسن.

فالاشتراك في هذه الجمعية هو وحده خدمة اجتماعية، إذ يتولى المشتركون نصيباً في أبحاث الجمعية المختلفة وفي لجانها، ويستطيعون أن يساهموا في تحرير المجلة التي تعبر عن آراء المشتغلين بالخدمات والمسائل الاجتماعية، وأن يساهموا في استنباط وسائل جديدة لخدمة المجتمع أو إصلاحه، وفي غير ذلك من الأعمال التي تحتاج لجهود

* خلاصة المحاضرة التي ألقاها على طلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية.

مشتركة مختلفة ، كتحضير الأبحاث والدراسات اللازمة لوضع النظم الاجتماعية على أسس علمية صحيحة ، ووضع الكتب والصحفيات ، أو إلقاء المحاضرات التي ترشد الجمهور إلى خير الوسائل لوقاية المجتمع أو إصلاحه . هذه هي أهم الواجبات التي يقوم بها الأخصائي الاجتماعي نحو المجتمع الذي يعمل فيه ، ويمكن تلخيصها في عبارة واحدة ، وهي مساعدة أفراد المجتمع على حسن الأداء لمهنة الحياة . فالحياة فن من الفنون قلما ندرك كنهه ، لأننا نقطع طريقها كما قطعه أسلافنا ، دون أن ندقق في المواقف العصيبة التي تتضمنها كل خطوة في سبيله ، مثلنا في ذلك كمثل القارئ الذي يقرأ كتاباً دون أن يستشعر المتاعب التي احتملت في وضعه وإخراجه وفي طبعه وتجليده ، ولا يعني بإدراك أن كل سطر بل كل حرف في الكتاب هو نتيجة لتجارب عديدة قام بها المؤلف أو غيره من علماء وكتاب ومخترعين وغير ذلك . فالحياة أمامنا [illegible] تروح وتغدو أمامنا ولا نفكر فيما قد [illegible] منهم من مصاعب ، مع أن كلاً منا [illegible] طبيعته ليتلاءم معه ، كما أنها لتتفق مع رغباتك ، بل يدخل كل منا هذا العالم الدائم التقلب ، خاضعاً لنواميس طبيعية لادخل فيها لوجودنا . وبعبارة أخرى يدخل الإنسان هذا العالم بأحواله وظروفه المتغيرة ؛ وواجب الإنسان أن يلائم بين نفسه وبين هذا العالم ملاءمة السعادة الحقيقية ، هذا الواجب يزيد ويتضاعف كل لحظة ، لأن ظروف العالم ليست مستقرة ، ويجب على الإنسان أن يوفق بين نفسه والأشياء التي تكتنفه والبيئات التي ينتقل فيها ، فالطفل ساعة الميلاد تتوقف حياته على مقدرته على التنفس والحصول على الهواء من الخارج بدلاً مما كان يحصل عليه بواسطة أمه وهو جنين بين أحشائها ، وبعد ساعات قليلة من ميلاده يجب أن يقوم بعملية الهضم ليعيش ، وكلما كبر وجب أن يتعود ما يطرأ من تغييرات في الحرارة وفي تقلب الفصول ومقاومة الميكروبات وغير ذلك ، فإذا فشل في تهيئة نفسه لأي دور من هذه الأدوار كان هذا الفشل قاضياً على حياته . ومن حسن الحظ أن جزءاً لا يستهان به من وسائل التهيئة يتم بشكل آلي وبدون إرادة الإنسان ، ولكن هناك نوعاً من التهيئة تدخل فيه الإرادة بل يحتاج الإنسان فيه إلى صراع وقد يكون صراعاً شديداً ، هذا هو تهيئة الإنسان نفسه ليتلاءم مع الأشخاص والظروف ، فهو يستيقظ تبعاً لشروق الشمس أو تبعاً لحاجة عمله ، ويتناول طعامه في المواعيد التي تناسب واجباته وتتفق مع ظروف الأشخاص الذين يعيشون معه ، ثم هو يجب أن يخضع نفسه لمواعيد القطارات في السفر ، ونظم المرور في الطرقات ، وأن يوفق بين دخله وبين رغباته ، وبين رغباته ورغبات جيرانه وزملائه ، بل بين نفسه وبين بيئته وبلدته ووطنه ، وأن يتهيأ لما يمر به من أدوار كالمراهقة والاستقلال عن أسرته [illegible] أو زواجه وإصابته بالمرض ، أو تعرضه [illegible] معها العمل أو اكتساب الرزق . [illegible] التي يلقاها في حياته كأن يتروع [illegible] عقبة في عاطفة من عواطفه — كل هذه الظروف والأدوار والتغيرات تختلف باختلاف الناس ، ولكن كلها تتضمن مشكلة واحدة هي مشكلة التوفيق والملاءمة ، وهي المشكلة الأولى التي يجب أن يستعد الأخصائي الاجتماعي لمواجهتها وحلها ، وعليه أن يبحث دائماً عن أفضل الوسائل التي تساعد على التوفيق بين الشخص ووسطه أو بيئته ، هذا هو أساس الخدمة الاجتماعية التي يقوم بها الأخصائي الاجتماعي نحو المجتمع .

كذلك على المجتمع واجب إزاء الأخصائي الاجتماعي ، إذ يجب أن يوجد فيه من الأسباب ما يساعد الأخصائي الاجتماعي على أداء واجبه — يجب أن يكون بحيث يسهل له القيام بعمله كأن تنشأ المؤسسات وتعد الهيئات التي تنتظر عمل الأخصائيين الاجتماعيين وتمهد لهم سبيل الخدمة والإرشاد والعلاج والوقاية — وهنا يجب أن لا نغفل الإشارة إلى الأساس الأول الذي لا يمكن أن يقام

بدونه نظام محكم للخدمات الاجتماعية ، ألا وهو المال ؟ فبالمال تنشأ المؤسسات والهيئات الاجتماعية التي يمكن أن يلتحق بها الأخصائيون الاجتماعيون . ولا يقتصر واجب دفع المال على الحكومة ، بل إنه على الأفراد أيضاً واجب المساهمة في جمع ما يلزم من المال لأعمال الخدمات الاجتماعية . وأفضل طريقة لذلك هي تنظيم الإحسان ، فالإحسان الفردي الذي نراه هنا في مصر لا يؤدي إلى نتيجة مجدية بل هو إساءة للإحسان . وقد كان هذا هو الحال في أوربا وأمريكا إلى أن تنبه القوم للنتائج السيئة التي تنتج من كثرة الجهات التي تطلب الإحسان وما يستتبعه ذلك من توزيع الجهود التي تبذل في جمع المال للأغراض الخيرية والإنسانية ، ولاحظوا أن ما تجمعه هذه الوسائل المتشعبة لا يفي بالمقصود ، فوحدت الجهود في أكثر البلاد ، وأنشئ في كل بلد أو منطقة معينة أو جمعية مركز يجمع فيه المال للأعمال الخيرية والاجتماعية . وهنا أيضاً أحب أن أشير إلى جمعيتنا «جمعية الدراسات الاجتماعية» فهي واسطة صالحة يجتمع فيها كرام المشرفين وتنضم فيها جهود الاجتماعيين ، فتكون مركزاً للمشتغلين بتلك المهمة السامية مهمة خدمة المجتمع ، ومستودعاً أميناً يجد فيه المتبرعون خزانة يودعون فيها ما يسهمون به في إصلاح المجتمع الذي يعيشون فيه .

فمن ناحية إذن يجب على الأخصائي الاجتماعي أن يقوم بنصيبه في رفاهية المجتمع وتعضيد رقيه ، ومن ناحية أخرى يجب على المجتمع أن يساعد الأخصائي الاجتماعي ويشجعه ويمده بالمال والوسائل التي تمكنه من أداء واجبه على الوجه الأكمل .

وفي كلتا الناحيتين نحتاج إلى هيئة منظمة صالحة أمينة توحد فيها جهود الاجتماعيين نحو المجتمع ، وتركز فيها جهود المجتمع نحو المجتمعيين ، ونحمد الله على أن هذه الهيئة قد وجدت بالنسبة للشئون الاجتماعية في الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية .

رحلتي إلى الحجاز

بقلم الآنسة فاطمة فهمي

وصلت إلى جدة بعد ستة [illegible]، وبعد أن استرحت ليلتي بفندق بنك مصر الذي يجمع كل وسائل الراحة، خرجت في الصباح — وكان يوم جمعة — في جولة صغيرة في المدينة، فإذا بي لا أرى غير بضعة منازل انتثرت هنا وهناك. أما السوق الوحيدة في المدينة فعبارة عن زقاق طويل ضيق، والدكاكين فيه صغيرة بسيطة تحوي أنواع العطارة والخضر والسمك والمنسوجات مجتمعة. وفي أثناء ذلك قرب الظهر شاهدت الجند يمرون في السوق وينادون: «الصلاة الصلاة»، والناس يسارعون إلى المسجد تاركين متاجرهم مفتوحة دون حارس يحرسها فدهشت، ولكني علمت أنه لا يجرؤ أحد على سرقتها، فالسارق هناك تقطع يده [illegible] في الطريق والسارقة فالقطع الأبدي [illegible] بدأ قطعت على مرتي من الناس، [illegible] تلك [illegible] لن يعجز.



السيارة بين جدة ومكة

بين جدة ومكة

وأما الطريق بين جدة ومكة فعبارة عن واد غير ذي زرع، يرتفع وينخفض انخفاضاً يرفع الراكب من مكانه في السيارة حتى يصطدم رأسه بسقفها، ولا يحضرني الآن عدد المرات التي اصطدم فيها رأسي بالسقف. وعطشت وأنا في الطريق وكانت [illegible] قد كثرت ووقفت على حافة [illegible] فانتظرت حتى مررنا بقهوة بسيطة، ولكن منظرها لم يشجعني على الشرب منها، والتفت حولي على أجد ما هو خير منها، فرأيت ولداً يبيع الفاكهة، فاشتريت منها بطيخاً وهو ليس بالرخص الذي نعهده في بلادنا فارتويت منه.



الكعبة الشريفة والحجاج يؤدون الصلاة

مكة المكرمة

وصلنا مكة المكرمة وذهبنا إلى فندق بنك مصر وفيه نعمنا بالراحة التامة، فجزى الله عنا بنك مصر وأهله خير الجزاء. وبعد أن استرحنا ذهبنا إلى الحرم الشريف فدخلناه من باب السلام، وهو أحد أبوابه التي تزيد على الأربعين، وأخذ المطوف يطوف بنا ويقرأ عبارات الدعاء لاحنا فيها ما شاء له اللحن، مما اضطرني بعد إلى الاعتماد على كتيب صغير، فكان بعد ذلك [illegible] له [illegible] الناس يطوفون صامتين، وكنت أستصحبه ليفسح الطريق لي فقط، وكثيراً ما كنت أقوم بعمل المطوف والطواف بنفسي [illegible] مساء حين يحل الظلام حول الكعبة.

رحلتي إلى الحجاز

بقلم الآنسة فاطمة فهمي

وصلت إلى جدة بعد سفينة ، وبعد أن استرحت ليلتي بفندق بنك مصر الذي يجمع كل وسائل الراحة ، خرجت في الصباح — وكان يوم جمعة — لجولة صغيرة في المدينة ، فإذا بي لا أرى غير بضعة منازل انتشرت هنا وهناك . أما السوق الوحيدة في المدينة فعبارة عن زقاق طويل ضيق ، والدكاكين فيه صغيرة بسيطة تحوي أنواع العطارة والخضر والسمك والمصنوعات مختلفة . وفي أثناء وجودي قرب الظهر شاهدت الجند يسيرون في السوق وينادون : « الصلاة الصلاة » والناس يسارعون إلى المسجد تاركين متاجرهم مفتوحة دون حارس يحرسها ، ولكني علمت أنه لا يجرؤ أحد على سرقتها ، فالسارق هناك تقطع [illegible] في السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما [illegible] يداً قطعت في مرة من الناس [illegible] تلك عبرة لمن يعتبر .



السيارة بين جدة ومكة

بين جدة ومكة

وأما الطريق بين جدة ومكة فعبارة عن واد غير ذي زرع ، ترتفع وتنخفض انخفاضاً يرفع الراكب من مكانه في السيارة حتى يصطدم رأسه بسقفها . ولا يحضرني الآن عدد المرات التي اصطدم فيها رأسي بالسقف . وعطشت وأنا في الطريق وكانت أمعائي قد كثرت ووقفت على حلها فانتظرت حتى مررنا بقهوة بسيطة ، ولكن منظرها لم يشجعني على الشرب منها ، فالتفت حولي علي أجد ما هو خير منها ، فرأيت ولداً يبيع الفاكهة ، فاشتريت منها برتقالاً وهو ليس بالرخص الذي تعودناه في بلادنا فارتويت منه .



الكعبة الشريفة والحجاج يؤدون الصلاة

مكة المكرمة

وصلنا مكة المكرمة وذهبنا إلى فندق بنك مصر وفيه تمتعنا بالراحة التامة . جزى الله عنا بنك مصر وأهله خير الجزاء . وبعد أن استرحنا ذهبنا إلى الحرم الشريف فدخلناه من باب السلام ، وهو أحد أبوابه التي تزيد على الأربعين ، وأخذ المطوف يطوف بنا ويقرأ عبارات الدعاء لا أحفظ منها ما شاء الله أن يحفظ ، مما اضطرني فيما بعد إلى الاعتماد على كتيب صغير ، فكان بعد ذلك إعانة لي وعجبت أن أرى الناس تطوف صامتاً ، وكنت أستحسنه لفسح الطريق لي فقط ، وكثيراً ما كنت أقوم بعمل الطواف والطواف بعد تناول عشاء حيث يقل الزحام حول الكعبة .

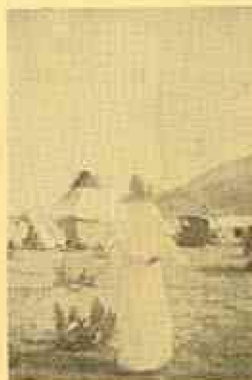
الحجر الأسود :

كانت والدتي التي سافرت أكثر من مرة قبلي إلى الحجاز تقول لي : « أرجو ألا تنسى أن يتاح لك تقبيل الحجر الأسود » ، فكنت أتعجب من قولها عجباً شديداً . ولكني عندما حللت بالأرض المقدسة وشاهدت الحجر كنت من أشد الناس مزاحمة للاقتراب منه ، وقبلته في شغف شديد ، وكانت رائحته زكية حتى لتشبه الأثير ، ولولا أن الزحام لم يترك لي غير فرصة اللمس والانسحاب .

زمزم :

حقاً أن ماء زمزم لما شرب له فقد شربته أول مرة ولم أستسغه ، ولكني لما رأيت فائدته كنت أشرب منه عقب صلواتي في كل يوم .

والحجازيون مولعون بشرب الشاي ولذا فهم يقدمونه في كل وقت . وقد زرت [illegible] فقدم إليّ الشاي المحلى دون [illegible] من الزجاج .



كاتبة المقال تلبس الإحرام في عرفة

إلى عرفة :

يحل جبل عرفة قبلة الحجاج جميعاً يوم الوقفة ، فيكون الطريق غاصاً بالسيارات والجمال والحمير والراجلين . وقد تعجب إذا علمت أن بعض هؤلاء الراجلين قد أتوا من بلاد نائية حفاة الأقدام ، وظهورهم مثقلة بما يحملون من مؤونة ومتاع . ولقد كان منظرهم حقاً يدعو إلى الإشفاق . إذ كانت الشمس عند ذلك على أشد ما يكون من الحرارة ، وهم يعتقدون أن الثواب على قدر المشقة .

وصلنا إلى عرفة وبعد أن استرحنا في الخيام التي كانت متراصة جنباً إلى جنب كأنها خلايا النحل ، توجهنا إلى جبل الرحمة وهو الجبل الذي تقابلت فوقه أمنا حواء وأبونا آدم وصلى عنده رسول الله ، وهناك نجد الزحام قد بلغ أشده ،



الحجاج أثناء الدعاء في عرفات

نظرت حولي فوجدت نفسي وكأني في معرض لوجوه أمم الإسلام ، كل سحنة مختلفة عن غيرها ، وقد اجتمع كل هؤلاء في بقعة واحدة لغرض واحد هو الابتهال لله وأداء ما فرضه عليهم ، وأثناء قراءة الدعاء في هذه البقعة تجيء

(البقية في الصفحة التالية)

المشيـــة والخلق

للدكتور طاهر خيري

— أتعرفه ، هذا الجالس وحده عند المائدة الثالثة على اليمين ؟

— لا ، لا أعرفه ولا أذكر أني رأيته من قبل .

— من أي بلاد تظنه ؟

— من إيطاليا أو أسبانيا .

— لو قلت من مصر أو الشام لكنت أقرب إلى الحقيقة .

— أنت تعرفه إذن ؟

— لا ، ولكني رأيته ماشياً ... فعرفت من مشيته أنه شرقي .

— وهل للشرقيين مشية خاصة أيضاً ؟

— إي نعم ... المشية الشرقية في نظري هي أخص مميزات الشرق .

— وكيف تصف هذه المشية الشرقية ؟

— ليس ذلك بالأمر الهين ... ثم إني أخشى غضبك إن أنا فعلت .

— تفضل ولا بأس عليك فلسنا بأطفال .

— كيف أصف لك المشية الشرقية .. اضطراب .. تمهل ... اعتلال ... هي مثل الموسيقى الشرقية ، فيها رقة لا تخلو من جمال ، وفيها وقار يسمو بها أحياناً إلى المهابة ! ولكن ... ليس لها غاية ... ثم هذه السكتات وهذه التموجات في الموسيقى الشرقية يقابلهما اليأس والحيرة في المشية الشرقية ... قد يسرع الشرقي في مشيته ويوسع خطاه ، وقد يندفع ويتمايل ، ويقتحم ويزاحم ، ولكنك لا ترى في كل ذلك ما يدل على أنه « يريد » الوصول إلى مكان معين .

— وكل هذه الصفات خاصة بنا دون غيرنا ؟ .

— لا أقول إنها خاصة بكم دون غيركم ، فهي موجودة ومعروفة عندنا أيضاً ، ولكنها نادرة ..... ليست نموذجية ... لا يصح أن يقال عنها إنها تمثل المشية الأوربية .

— قد سئمت والله حديث النماذج والنموذجيات ، والأمثال والمثلات ! لقد أفسدتم الأسلوب العلمي ، والتفكير السليم بهذه القوالب الصناعية ، « فليس بالقياس تجرى أمور الناس » .

— هذا صحيح غير أنه لا ينطبق على علم المشية والخلق .

الجو خالياً من شمس وعاصفة إلى غمام وسحاب ، ومن حرارة قوية إلى برد لطيف . وبعد ذلك ابتدأ مطر خفيف لم يعبأ به أحد ، إذ كان كل منا منهمكاً في الدعاء لله ؛ ولكن المطر اشتد فتفرق الحجاج كل إلى خيمته ، وضللت أنا الطريق ولم أعثر على الزملاء ، فنالني من المطر ما نالني . وبعد أداء الفريضة وإتمام شعائر الحج عدنا إلى الوطن شاكرين الله على هذا التوفيق . ولم آسف على شيء إلا على عدم زيارتي قبر رسول الله الذي حال دونه مرضي ، ولكني قوية الأمل في الحج والزيارة مرة ثانية ، وفقنا الله جميعاً إلى مرضاته تعالى .

فاطمة فهمي

— «علم» المشية والخلق! أو قد صار علماً هذا ...؟

— هذا العلم! نعم! علماً ولا تبال. أنا لا أعتقد لاحظت وقارنت وأحصيت وراجعت! فجمع لدي من المواد ما يكفي لوضع علم جديد.

— ألا تحدثني عن تاريخ هذا العلم الجديد؟ كيف ابتدأت الخ.

— كانت أبحاثي الأولى في المشية والعقل، فدرست مشية السكران، والمعتوه، والمتخلف والضعيف العقل والصبي... ثم درست المشية والحرفة؛ فكنت أول الأمر لا أعرف مشية التاجر من مشية الموظف، ولا مشية العالم من مشية الفنان؛ فواصلت البحث حتى صرت أستطيع تعيين رتبة الضابط وهو بلباس السهرة... ثم عرفت الأستاذ (ب)، وأظهر اهتماماً شديداً بهذا الموضوع، فكان [illegible] إلى مباراة مرتين في الأسبوع مدة [illegible] من النافذة بعد خروجهم، ونقابل نتيجة فحصهم بخصائص مشيتهم. واكتشفنا أشياء كثيرة أهمها مشية المخنث.

وفي السنوات الأخيرة قمت بسياحة طويلة في بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقيا كما تعلم، فكنت أجلس في مقاهي الطبقات المختلفة، فألاحظ المارة وأتحدث مع الجالسين، كانت دراسات هذا العهد أخصب وأمتع وأكثر تنوعاً من كل دراساتي السابقة... مشية البدوي المتحضر، والفلاح المتمدن، والشيخ المتفرنج، وحديث النعمة، وربيب النعمة... ثم أنواع المتفرنجين الذين تفرنجوا في أوربا والذين تفرنجوا «محلياً»... هذه هي خلاصة تاريخ علم المشية والخلق.

— وأي المشيات الشرقية تعجبك؟

— تعجبني مشية المرأة البدوية والفلاحة المصرية، وأكثر أساتذة المعاهد الدينية، وبعض متفرنجي الجيل الماضي.

— لماذا لا يعجبكم من الشرق إلا القديم؟

— هذا طبيعي ومعقول لأن الجديد عندكم مقتبس من الغرب وأنتم لا تحسنون الاقتباس... انظر إلى الطلبة المتخرجين في أوربا مثلاً! كيف تصفهم؟ الفقير منهم يشبه الوقاد الهندي أو الصومالي إذا خرج من الباخرة ليتجول في شوارع ليفربول، والغني يذكرك بالبقال الأسباني بلباس العيد... أين هذا من وقار الشيخ المعمم؟

— المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في زيه ونحلته وسائر أحواله، كما قال ابن خلدون: يظهر أن هذا ناموس لا مفر منه.

— أتعتقد حضرتك أننا من الغالبين؟ إن الأحداث في [illegible] سكم ما لا وعدوا، ولكن ماذا استفدنا [illegible] تاريخ حياتنا هذا... حرب وهدم، ثم بناء فبطالة، ثم استعداد للحرب، ثم حرب وهدم فبناء فبطالة فاستعداد للحرب، وهكذا... نحن كما قال شاعركم: «لدوا للموت وابنوا للخراب» فهلا فكرتم في عاقبة الاقتداء بنا... أم تطمعون أن تسلكوا نفس الطريق ولا تصلوا إلى نفس الغاية؟ هل يجنى من الشوك العنب؟ هلا غيرتم من مشيتكم دون أن تقلدوا مشيتنا... آه! الساعة السابعة! يجب أن أسرع. تعال وصلني إلى المحطة.

— لا أظن قدرة في القيام بعد كل هذا — فضلاً عن المشي.

— إذن مع السلامة. ولا تنس موعدنا يوم الخميس الساعة الرابعة.

مونيخ (ألمانيا) ظاهر عمري

وقفة على قبر الشاعر الكبير :

المرحوم الأستاذ محمد الهراوى

للأستاذ أحمد الزين

ذكرى إذا حال موت بيننا تصلُ
ما تنقضي الدهر حتى ينقضي الأجلُ

تُعيد لي من زمان الودّ أخيره
فيها الحديثُ وفيها المجلسُ الحفلُ

أرى فؤادك في مرآتها صورًا
وألمحُ الوجه فيه البشر والخجلُ

فيها حياتُك لا موتٌ ولا هرمٌ
فيها زمانُ الصبا والعمرُ مقتبلُ

يا ليت حائلَ هذا الموتِ فرقنا
في البدء ما وصلٌ ما بالموت ينفصل

وما التشاؤك وذا حزنٌ آخره
يُنسيك ما أورثت أيامه الأُوَلُ

دع الليالي بما تبلى محاسنه
تمضي وتخلقه الأحزانُ والعللُ

تبّ الجمال إلا عهد جدته
يا ليت عشاقه قبل الهوى عقلوا

فاملأ فؤادك من يأسٍ تزجّ به
أشقى الهوى الورى شيء هو الأمل

* * *

في الذكريات وما أستعيضُ به
عمّن فقدتُ ووُدٌّ ليس ينتقل

كأنك اليوم (بالخشليف) على
ما قد تعوّدت لا خلفٌ ولا مللُ

تلقى بين وفودِ الزائرين بها
وفدًا يحلّ ووفدٌ بعده يرتحل

يُسعدك الركب شيء غير منتقصٍ
أنا وإياك دام منه العيشُ والتحلّي

[illegible] شبّوا ومن حفظوا
ونسمع الودّ من ضنّوا ومن بخلوا

وكم سروا وذلك الغالي عقوقهم
لم تسأل بما قالوا وما فعلوا

وما ندمتَ على شيءٍ بذلتَ به
إلى زيارته تحييه فما عجلوا

ما زلتَ تكرم فيهم كلما ألمّوا
تلقى وتسمو فعالًا كلما سفلوا

تجري بساحتهم أفضالها صلةً
كأنما نزلت في قلبك الرسلُ

سرت أحاديثهم بالشرّ فاقبلت
في زهرٍ وذلك أخلاقٌ جنيها عسل

إذا الخلود أرادت قلبه وطناً
خلت ثراها وشدت نحوه السبل

كم سائلٍ ربه عن فقده عوضاً
لو أنصفوا ودّك المفقود ما سألوا

وكلّ ماضٍ له من فقده بدلٌ
إلا الوفاء فما من فقده بدلُ

وكلّ رزءٍ وإن جلّ المصاب به
إلا مصابك بالأحزان محتملُ

يا دوحةً بجلال الخلق حافلةً
أهكذا تنطوي في أوجه الدولِ!

وراحلاً ودّه في القلب مشتعلٌ
حتى البكاء عليك الآن منفعلُ

قد كان سعدك ولّى بعد فقدته
صراحةٌ بك فيها يضرب المثلُ

كأنّ قلبك أفق الشمس مشرقةً
في روعة النور منه القول والعملُ

صراحةٌ كم سقتك المرّ مُجدبةً
ولم يحُل منك فيها عاذلٌ من عذلا

آثرتها وطلبت العمر مغتبطاً
بنقص حظك حين الحظ مكتملُ

أحمد الزين

وحي الربيع :

معنى الربيـــع

أيها الربيع إنك معنى
في ضمير الزمان منذ قديم
يتجلى في صفحة الطير والغـ
ـصن ، وفي كل صادح ونسيم
كل عام ... في رنة قطّ حلم
حينما يبدو من جنة الترنيم
تتلقاه في الطبيعة شعراً
خالق الحسن ، خالق التنعيم
زاده عابد السنين بياناً
فتلقى منه نسيب التعليم !

انسجام الحياة في الربيع

كتب حلم !
ما للنسيـــم كأنه نغم
ما للرياض كأن طلعتها
وجه الحبيب أطل يبتسم
والنفس بالدنيا قد ارتفعت
والقلب بالتغريد مزدحم
تثب النفوس لزهر جنتها
مثل الحروف زهت بها القلم
أنغم حياة ما استطعت وخذ
طرباً يدوم لقلبـــك النغم
نفس الربيع يطوف طائفه
فالكون كالأنغام منسجم !

العوضي الوكيل

هاتان القطعتان من ديوان « أغاني الربيع ».

باب الموازنات :

حمامتا البارودي

للأستاذ محمد محمد راشد

قرأت في العدد الثامن من الثقافة في باب « من أحسن ما روي » مقطوعة للبارودي من قصيدة في سيرة رسول الله ، عارض بها قصيدة البوصيري ، ثم قال الأستاذ أحمد الزين إن قصيدة البوصيري في الرتبة الأولى والبارودي في الرتبة الثانية ، وشوقي في الثالثة . وعقّب على هذا الكلام بقوله : « ولا أرى الآن الحديث إلا أن أجد بعد سعة في الوقت فأتحدث عن هذه القصائد الثلاث حديثاً طويلاً ، وأعقد موازنة دقيقة عادلة بينها » . ثم قرأت المقطوعة عدة مرات ورجعت إلى أبيات البوصيري وشوقي في ذلك المعنى نفسه ، فخرجت إلى كتابة ما عنّ لي من موازنة القصائد الثلاث . وربما خالفت الأستاذ أحمد الزين في رأيه الموجز الذي ذكرته آنفاً . وإن أحب شيء إليّ هو أن يصدّق الأستاذ وعده ويعقد موازنة طويلة دقيقة عادلة ، وأسأل الله أن يفسح له في الوقت .

قال البوصيري :

وما حوى الغار من خير ومن كرم
وكل طرف من الكفار عنه عمي

فالصدق في الغار والصديق لم يرما
وهم يقولون ما بالغار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

ذلك شعر سهل خفيف الوقع على الأذن عذب التلاوة ساذج فطري يقرر حقيقة ثابتة ، خلو من الصورة الشعرية التي تأخذ بالألباب وتستهوي الأفئدة ، وقد وصف البوصيري الغار بأنه ضم خيراً وكرماً وصدقاً . وأحسن ما فيه قوله :

« وقاية الله أغنت عن مضاعفة »

وما ذاك إلا لأنه في البيت يقرر حكمة خالدة تميل إليها النفوس ، وترتاح لها القلوب ، وتؤيدها العقول . ثم جاء شوقي وقال :

هل أبصروا الأثر الوضاء ، أم سمعوا
همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ذاك الركن لم يقم

تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

هذا شعر بديع والاستفهام في أوله كساه جلالاً ، وفي الحق أنه استفهام معنى النفي ؛ فهم لم يبصروا ولم يسمعوا مع ما في الغار من سنا مشرق وخير عميم .

ثم ذكر شوقي نسج العنكبوت على فم الغار والحمام الذي عشش فوقه ، في صورة من التشبيه الرائع الذي لم يهتد إليه البوصيري ، فهو يقول : إن العنكبوت الذي ضرب الله به المثل في الوهن تمثل للكفار غاباً ، وإن الحمام الوادع الهادئ شبه لهم بجوارح الطير وضواريه ؛ فهو أقوى وأعلى من قول البوصيري : « ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت » ، ثم يقول بعد : « فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم » الخ .

وهنا يذكر شوقي في صورة أخاذة ، أنهم ارتدوا على أعقابهم خاسرين خائبين ، الأرض ومن عليها تلعنهم ، وشبههم مهزومين بالباطل الذي قذف عليه بالحق فدمغه ، وبيّن ما للحق من قوة وجلال . وهذا ما لم يرد على ذهن البوصيري ،

ثم يقول شوقي : « لولا يد الله بالجارين ما سلما » الخ ، فذكر يد الله ونعمته على الجارين ، وأن عنايته لا تنيمهما وحرستهما متيقظة ، وأنهما استترا ولاذا بكنف الله ، وآووا إلى ركنه الشديد . والبيتان عندنا أروع وأفحل من بيت البوصيري

ثم جاء البارودي فقال :

وجاء الوحي إيذانا بهجرته
فيمم الغار بالصديق في الغسم [1]

فاقتبس قصته وهجرته بالوحي الذي نزل عليه مصداقا لقوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ، وبين أنه ولى وجهه شطر الغار يصحبه الصديق أبو بكر ، وباء المصاحبة أظهرت أبا بكر رفيقا صديقا مطيعا كريما :

فما استقر به حتى تبوأه
من الحمائم زوج بارع الرنم [2]

وما وطئت أقدامهما الغار حتى آوى إليه زوج من الحمام رقيق الصوت . وهنا يأخذ البارودي في وصف هذا الزوج من الحمام وصفا رائعا جميلا في صورة من التصوير قل أن جادت بمثلها قريحة شاعر ، فهو يقول :

بنى به عشه واحتله سكنا
يأوي إليه غداة الريح والرهم [3]

بين أن الحمام استقر بالعش واحتله ، وأنه كان يأوي إليه إذا هبت الريح أو أمطرت السماء لا خوفا على نفسه ، ولكن حبا في فيه ورعاية ووفاء لها :

إلفان ما جمع المقدار بينهما إلا لسر بصدر الغار مكتتم

وجميل عندنا أن يعزو السبب في ألفة الزوج ومحبته لسر عظيم وأمر خطير ، في الغار ينبوع الهداية ومبعث النور العميم :

كلاهما ديدبان فوق مربأة
يرعى المسالك من بعد ولم ينم

إن حس همسا عراها أو دعا طارا
بلثم المنديل أجابت تلك بالنغم

وتشبيه الحامتين بالديدبان خيال بديع موفق . والديدبان فوق مرتفع حتى لا يعزب عنه شيء ، فهو ديدبان يقظ يرعى الطرق كلها والمسالك لا يأخذه نوم . وكل لفظ في هذا البيت يحوي من الجمال والبهاء ما تقصر عن وصفه الأفهام :

يخالها من يراها وهي جاثمة
في وكرها كرة ملساء من أدم

تشبيه الحمامة وهي جاثمة في عشها بكرة ناعمة من جلد تشبيه طريف حديث ، وهو من التشبيهات العقم في حد تعبير علماء البيان :

إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت
روت غليل الصدى من حائر شبم

مرقومة الجيد من مسك وغالية
مخضوبة الساق والكفين بالعنم

شبه طوق الحمامة حول جيدها من ريشها بلون المسك والغالية في السواد ، وشبه لون ساقيها وكفيها بلون العنم في الحمرة . وقد استرسل البارودي في وصف الحمام ، فأتى عشه أليفا وديعا يقظا حنونا طروبا حافظا طائرا مرفرفا هابطا محلقا مرقوم الجيد مخضوب الساق والكفين ، وهو استقصاء لطيف ما ترك فيه وصفا حاليا للحمام إلا ذكره ، لما قدمه من خدمة وما أسداه من نعمة ، وما له من منزلة ، وما ناله من شرف . ثم انتقل البارودي إلى العنكبوت :

ونسج العنكبوت الغار محتفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم

البيت كله حسن وجمال . فالعنكبوت قد ستر الغار سترا ما ترك فيه ثقبا ، وألح في ستره ، وبالغ في ذلك محتفيا ، وصنع خيمة نسجها أبدع نسيج :

قد شد أطنابها فاستحكمت ورست
بالأرض لكنها قامت بلا دعم

(١) الغسم : ظلام شديد . (٢) الرنم : صوت .
(٣) الرهم : الأمطار الخفيفة .

لم يفت العنكبوت أن تثبت دعائم خيمته حتى لا تعبث بها الريح رخاء أو هوجاء ، فشدت حبالها وأرستها ، لكن بلا عمد ، وهذا نوع من حسن الصنعة التي وفق إليها العنكبوت ، حتى صارت خيمة عجيبة مختارة قال فيها :

كأنها سابري حاكها لبق
بأرض سابور في مخروطة العجم

شبه الخيمة في نسجها وحسن صنعها بثوب رقيق صنعه صناع بأرض العجم :

وارت فم الغار عن عين تلم به
فصار يحكي خفاء وجه ملتثم

هذه الخيمة نسجت على فم الغار فأكنته حتى خفي على العيون ، ودق على الأبصار حتى أشبه وجه ملتثم وهو تشبيه جميل :

فيا له من ستار دونه قمر
يجلو البصائر من خوف ومن ظلم

وهنا يصرح البارودي بما أشار إليه البوصيري في قوله : « وما حوى الغار من خير ومن كرم » ، وما أشار إليه شوقي بقوله : « هل أبصروا الأثر الوضاء » .

ولكن البارودي يفوق سابقه ولاحقه ، فهو يقول : ما أعظم هذا الستار ولله دره ، فتحته قمر منير ، يزيل الظلام والظلم ، فهو جلاء ونور للقلوب والعيون . وجمعه بين الظلم والظلم إيجاز طريف ، وتركيب البيت في أوله مدح ممزوج ، فالستر له جلال ووقار ، لأنه ستر خير الناس قاطبة ، وتحته قمر يضيء للناس الطريق ، ويهدي الضالين ، ويدفع الظلم عن المظلومين . ثم قال :

يظل فيها رسول الله معتكفاً
كالدر في البحر أو كالشمس في الغسم

شبه رسول الله معتكفاً في الخيمة أو في الغار بلؤلؤ مكنون ودر مصون ، وبالشمس غطتها قطع متفرقة من السحاب ، وهو تشبيه معتاد مألوف عند الشعراء :

حتى إذا سكن الإرجاف وانكشفت
أكباد قوم بنار اليأس والوغم

أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى
من عنده السر من خل ومن حشم

وسار بعد ثلاث من مباءته
يؤم طيبة مأوى كل معتصم

ولم يزل سائراً حتى أناف على
أعلام طيبة ذات المنظر العمم

يوم به أرخ الإسلام غرته
وأدرك الدين فيه ذروة النجم

في هذا الشعر يذكر البارودي أن الكفار تحيروا ثم يئسوا وتفتتت أكبادهم حقداً وضغناً على رسول الله ورفيقه ، فلما سكنت الفتنة ، وانقطعت الأخبار ، وانقشعت الغيوم أوحى الرسول إلى أبي بكر بإعداد العدة للسفر ، [illegible] ووضع سره ونجواه ، ثم اتجهت نحو [illegible] ، وملاذ الخائف . ساروا حتى بلغاها في يوم [illegible] الإسلام ونصره ، وظهر أمره وذاع خبره ، وأرخ بذلك عمر التاريخ الهجري الذي محا كل تاريخ ، وأدرك الدين بدخول صاحبه المدينة مناط النجوم .

والبارودي فيما يختص بهجرة الرسول ، استرسل في وصف حمامتيه وعنكبوته وصفاً شعرياً محبوباً بالغاً في خياله مبلغاً لا يسامى . وإغفال البوصيري وشوقي وإيجازهما ، وتطويل البارودي ومبالغته وبراعته ، وإتيانه بما ذكرت من تشبيهات عقم ومعان رائعة ، جعل لشعره المذكور قيمة فنية حية ، وروعة قوية ، وجعل لحمامتيه منزلة بين الحمام ، وبيت العنكبوت الذي قال الله فيه : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » جعله البارودي أقوى من كل قصر مشيد .

وعندي أن استقصاء البارودي واسترساله في وصف الحمام يرجع إلى أنه قضى شطراً من حياته شريداً طريداً منفياً

آيتان من آيات الله*

للأستاذ قدري حافظ طوقان

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي» .

(حديث شريف)

الخوف والقلق:

كل ما في الكون من ظواهر طبيعية وفلكية عجيب غريب ، يسير حسب نظام خاص يسعى الإنسان لكشفه ، وتسيّره قوة خارقة مبدعة منظمة [illegible] على الاقتراب منها والوقوف على حقيقتها . ولا يخفى أن من هذه الظواهر ما يقع دائماً وبانتظام في أوقات معلومة ، فلا نرى في ذلك ما يثير الدهشة . ومنها ما يقع [illegible] يبعث الخوف ويدخل القلق إلى النفوس.

أليس ظهور القمر في أوجه مختلفة من أعجب ما يراه الإنسان ؟

أليس في ظهور الشمس يومياً من المشرق ثم في اختفائها مساء في الأفق الغربي من أغرب ما يجري في الكون ؟

*

ولكن تكرار حدوثهما بانتظام ودون انقطاع أزال الدهشة وجعل ذلك من الأمور العادية لا يقف عندها الإنسان طويلاً أو كثيراً . وفي هذا العالم المليء بالعجائب ظواهر طبيعية نادرة الوقوع يحدث بعضها مرة في كل عام أو مرتين ، وبعضها قد لا يحدث إلا مرة في كل خمسين أو مائة سنة . ومن الطبيعي أن تظهر هذه للناس غير عادية فيحسبوا لها ألف حساب ويهتموا بها ويستولي عليهم الفزع إلى درجة تجعلهم يعدون ذلك غضباً من الله أنزله عليهم.

وكان الناس يتمحلون لهذه الظواهر أسباباً ، منها ما هو معقول ، ومنها ما هو غير معقول . فقد زعموا أن تنيناً يبتلع الشمس والقمر ثم يدعى بالصياح فيتقيأهما . وكان الصينيون يتشاءمون من الكسوف . ويقال إنه وقع من قديم الأزمان كسوف خاف الناس منه كثيراً ، مما حمل بعض الشعراء بذكر ذلك شعراً ، فقد جاء في إحدى القصائد للشاعر صيني بمناسبة كسوف حصل للشمس ما معناه :

* حدث في يوم الأربعاء ٣ مايو سنة ١٩٣٩ خسوف القمر الساعة ٦ و ٤٣ ق مساء ، وكسوف الشمس لا يرى في مصر ؛ وبهذه المناسبة ننشر هذا المقال .

غريباً ، والغريب يحن إلى إلف يجالسه فطير حديث ، أو خل يرى له عهداً ، ويحفظ وداً ، فإذا عز ذلك عليه وافتقده طلب من الحمام أليفاً ، ومن الطير أنيساً ، فصار حب الحمام عادة مألوفة ، يجري ذكره على لسانه عفواً ساقطاً .

وأما حسن صناعته ، وجميل وصفه لبيت العنكبوت ، فلأنه يسند الرسول وله قدره العظيم .

والبارودي خياله موفق كل التوفيق ، وشعره جيد كل الجودة . وقد ذكرت من ذلك ما أوحاه إلي الخاطر ، فإن أكن قد وفقت ، فالخير للقراء أردت ، والثواب من الله سألت ، والشفاعة من المصطفى رجوت ، وإن تكن الثانية فحسبي أني باحث مجتهد .

محمد محمد راشد

« كسفت الشمس ، وولت شؤون كبير

« ثم صغر القمر وصغرت الشمس

« ولذلك ستسوء حالة الناس على الأرض .

« وهذا إنذار سوء من الشمس والقمر

« سادت الأحكام في البلاد كلها

« لأن السيادة ليست في يد الصالحين

« خسوف القمر أمر عادى

« وأما كسوف الشمس فما أشأمه . . »

وفاة ابن الرسول الأعظم :

جاء في البخارى « عن . . . عن مغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله عليه السلام يوم مات ابراهيم (ابن رسول الله) فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم . فقال رسول الله (ص) : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي » .

وبذلك يكون الرسول الأعظم صلوات الله عليه قد وضع حداً لسخافات المنجمين وأقوالهم ، وللاعتقادات العامة في أسباب الكسوف وغيره . وبيّن بأن الظواهر الطبيعية لا تحدث لموت أحد أو لحياته ، بل إنها تسير حسب نظام وضعه البارى جل وعلا . وما علينا عند حدوثها إلاّ أن نذكره تعالى ونذكر عظمته وقدرته على كل شيء . وفى تلك الذكرى ما ينفع المؤمنين ويزيدهم إيماناً .

الكسوف والخسوف :

والآن . . . ما الكسوف ؟ وما الخسوف ؟ وما أسبابها ؟

إن الاجرام السماوية ليست متساوية الأبعاد عن الأرض ، ومن هنا يصدف أن يمر جرم أمام جرم آخر بيننا وبينه فينتج من ذلك حجب الجرم الثانى عن نظرنا ، ففى الكسوف يحدث أن يمر القمر بين الأرض والشمس تماماً فيحجب نورها عنا . وهنا قد يخطر للقارئ أن يسأل : كيف يمكن القمر أن يحجب نور الشمس وهى أكبر منه بكثير ؟ والجواب هو أن الشمس والقمر يظهران كأنهما متساويا السعة ، لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس ، وتكاد تكون النسبة بين بعدى الجرمين المذكورين عن الأرض تساوى النسبة بين حجميهما . وحينما يتفق مرور القمر بيننا وبين الشمس تماماً فالذى فى الشكل المقابل لم كريهما يرون القمر عند تكامل الكسوف قد غطى وجه الشمس كله . وهذا ما نطلق عليه الكسوف الكلى ، وإذا كانت الشمس في أقرب بعدها عنا ، فإن وجهها يكون أوسع من وجه القمر ، ونرى أنه غطى وجهها كله وترك حلقة نيرة حوله ، وهذا ما يسميه الفلكيون [illegible] وإذا مر قرص القمر أمام جانب من قرص الشمس فإن الكسوف يكون جزئياً ، وقبل تكامل الكسوف الكلى أن انطبق قرص القمر على وجه الشمس ، وعند تكامله (تكامل الكسوف) يأخذ القمر فى الانجلاء عن وجه الشمس تدريجياً ويستمر إلى أن يتم الانجلاء وترجع إلى حالتها الأولى من البهاء والسناء . وأكثر ما يحدث فى السنة خمسة كسوفات ، وأقل ما يحدث كسوفان . أما الخسوف فيختلف عن الكسوف ، فليس بيننا وبين القمر أجرام يمكن أن ينتج عن مرورها حجب ضيائه ، وإذاً فكيف يحصل الخسوف ؟ وهو أمر شاهده الناس وتحدثوا عما يحدثه من رهبة وجلال .

للأرض ظل يمتد وراءها إلى مسافة تقرب من (٨٠٠) ألف ميل ، فإذا اتفق ووقع القمر — وهو الجرم الوحيد الواقع ضمن هذه المسافة — فى هذا الظل أثناء سيره فى فلكه حول الأرض حصل خسوف ، فإذا نصف ووقع كله

في الظل سمي خسوف كلي ، وفي حالة وقوع جزء منه في الظل سمي خسوف ذلك الجزء ، ويطلق عليه خسوف جزئي .

وقد استطاع الفلكيون أن يحسبوا أوقات الكسوف والخسوف ، وأن يتنبأوا عن حدوثهما ، وقد جاءت حساباتهم دقيقة جداً إلى درجة تثير الدهشة والإعجاب !

وقد لا يحدث في العام خسوف ما . وقد يحدث كسوفان وثلاثة خسوفات ، وأكثر ما يحدث خمسة كسوفات وخسوفان ، وفي كل الأحيان لا يزيد عدد الكسوفات والخسوفات على أربعة .

المناظر الجوية :

قد يكون منظر الكسوف ولا سيما الكلي من أروع المناظر وأكثرها وقعاً في النفس [illegible] فعند الكسوف الكلي يُرى الشاهد [illegible] وهي شواظ [illegible] الشمس إلى مئات الألوف من الأميال [illegible] الهيدروجين والكلسيوم ، وقد أكسبت الحرارة الشديدة الأشعة الصادرة منه لوناً أحمر . ويُرى أيضاً ألسنة تنبعث منها غاز حمراء ، كما يُرى الإكليل — وهو أشعة محيطة بالشمس ذات لون أخضر ونور لؤلؤي . ففي كسوف أواخر مايو سنة ١٩٠٠ قال أحد العلماء الذين رصدوه من بلاد الجزائر إن الإكليل المحيط بقرص الشمس كان كبيراً جداً ومشرقاً يبلغ عرض هالته قدر قطر الشمس ، وقد نشأ عنه شعاعان كبيران ، أحدهما إلى أعلى والآخر إلى أسفل . ولما تم الكسوف برد الهواء وأظلم وجه الأرض وشعر الناس كأن زوبعة دنت منهم ، وقد بقي الإكليل منظوراً دقيقة ونصف دقيقة بعد تمام الكسوف ، وظهر عطارد والزهرة ، كما ظهر معهما نجمان آخران وتغير لون السماء من أزرق إلى رصاصي ، ولون الأشجار من أخضر إلى قرمزي . ويقال إنه عند حدوث الكسوف في ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ ظهر الإكليل بشكل جناح بهيج الدفق بهالة الألوان السحرية التي رؤيت فيه من أبيض وبرتقالي وأصفر وأحمر وبنفسجي . وفي كسوف مايو سنة ١٩١٩ ظهرت نجوم كثيرة وكان الإكليل واضحاً جداً . ويقول [illegible] إنه عند كسوف سنة ١٩١٩ ظهر نتوء هذا العالم على صورة آكل ضخم من آكلة النمل يبلغ البعد بين خرطومه وذيله (٣٥٠٠٠٠) ميل وهو حجم لو تمثل لحيوان لاستطاع أن يبتلع الأرض كلها كما تبتلع الحبة ... ثم وضع ذلك المخلوق خرطومه وذيله على سطح الشمس ... وزاد في مد أرجله وأخذ يقفز إلى أعلى ، فوصل إلى علو (٤٧٥ [illegible]) ميل ، ومنعتنا حال غروب الشمس دون الاستمرار في مراقبة ما كان بعد ذلك من غرائب .

وعند الكسوف يحتشد العلماء من كل الأقطار لرصد الشمس ودرس أحوالها وسطحها ، ويذهبون إلى الأماكن التي يرى فيها الكسوف كلياً ، ويستعملون كل ما لديهم من الوسائل وآلات الرصد لزيادة معلوماتهم عن الشمس والوقوف على التغيرات التي تحصل على سطحها ، وعن العلاقة بينها وبين ما يحصل من الظواهر الجوية على الأرض .

وأخيراً وقبل الختام ألفت نظر الصيادين إلى كثرة السمك الذي يخرج إلى الشاطئ عند ما يظلم وجه الأرض عند الكسوف الكلي — وهذه فرصة سانحة لهم ، فما عليهم إلا أن يلقوا شباكهم في البحر ، وأن لا يتكاسلوا أن يسحبوها إلى (الشاطئ) مثقلة بأنواع الأسماك .

(نابلس) قدري حافظ طوقان

صور من الناس :

قلت إلى أين ؟ قال إلى الجحيم !!!

قصة مصرية بقلم الأستاذ عبد الله حبيب

صديق الأستاذ .. أديب واسع الاطلاع ، دؤوب على تتبع تطور الفكر في تاريخ الأمم والشعوب شرقية وغربية ، لكنه مفرط ولعه بالمطالعات السلبية الشاقة ، ولكثرة ما ملأ رأسه من علوم شتى ومعارف وآداب ، قد أصبح في مجموعه « كركتة » علمية وأدبية ، تحار في اختيار النفيس منها والأنفس .

وهو في ذاته وهندامه تخطيطات أولية لرسم إنسان ! لا يحتمل زينة أو أناقة ، ولا يعنيه من شأن الدنيا إلا أن يعيش ليقرأ !!

عينان متضخمتان في وجه شاحب لا تحيل إليهما [illegible] تقاسيمه قد رسمت بغير تؤدة ولا تنسيق . ورأس صغير يحمل طربوشاً متمرداً لا يستقر منه في موضع ، كأنه رُكب فوق رأس من زئبق ، فهو مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، وحيناً إلى الأمام ، حتى ليكاد يغطي حاجبيه ويحجب عنك عينيه ، فإذا شاء أن يرجع إلى مؤخرة الرأس نزلت على جبينه المرتفع ذؤابة تتكون من عشرين أو ثلاثين شعرة ، تطل عليك من فوق ذلك الجبين المرتفع البارز الذي لا تقره مصلحة التنظيم !! وتبارك الخلاق العظيم .

وهو — بعد ذلك — مكتبة متنقلة تستطيع أن تجد فيها أكثر ما تطلب من كتب علمية وأدبية وتاريخية ومجلات وصحف يومية . فإن أردت أن تقف على أحدث ما كتب النقاد الغربيون عن الأدب والشعر والمسرح ، فقد جئت إلى جيبه !! وستجد — وأنا واثق مما أقول — كتابين أو ثلاثة ، بعضها فتحت أوراقه وبعض ملازمه ، وبعضها لم تفتح كلها ولم تلامس صحائفه أنامل الصديق . وإن كنت من طلاب العلوم ، وكنت ترغب في قراءة آخر ما وصل إليه علماء الأقرباذين والجراحة والطب والكيمياء والكهرباء وما إلى هذه العلوم ، فتناول من جيبه الثاني ما تريد ودع ما لا تريد . وإن كنت من عشاق الآثار المصرية القديمة وشاقك أن تعرف شيئاً من تاريخها ، أو أحببت أن تعرض وتبحث تاريخ الثقافة المصرية في عهد الفراعنة [illegible] منه ، فاختلف مما يأخذه الصديق من جيبه [illegible] على باشا مبارك أو كتاب الأمير من عصر إسماعيل . فإن كنت لا ترغب في شيء من ذلك وخطر لك أن تراجع بعض الأخبار أو تقرأ بعض البحوث الأدبية أو الاجتماعية في صحف الأسبوع فستجد ما تشاء وما لا تشاء ، من مجلات أسبوعية وصحف يومية في إحدى جيوب صديقنا ...

والأستاذ محمود أو محمود أفندي — ولكن هذا الاسم هو اسم صديق — يكره أن يناديه أصحابه بمحمود أفندي بل يهون عليه أن يفقد إحدى عينيه ولا يفقد لقب « الأستاذية » . وهو يزعم أنه قرأ في صحائف الحياة ، واستشف من حجب السنين أضعاف ما قرأ في صحائف الكتب . وأنه انتهى في ذلك كله إلى النتيجة واحدة هي : « إن الحياة مع المرأة جحيم لا يطاق » .

وعبثاً تحاول إقناعه بنقيض ما يعتقد .. ولذلك فهو

يكره المرأة ويفر من مجلسها . وهو كلما تحدث الناس عن نعيم الأزواج وجنة البيت التي تمهدها المرأة وتفيأ ظلالها الرجل ، ضحك ساخراً بالناس هازئاً بأحلامهم ، وراح يتحدث عن مساوئ المرأة وعيوبها بعبارات لاذعة عنيفة .

قضى أينع أيام الشباب وحيداً في داره الصغيرة الموحشة التي اختارها لسكناه في ضاحية مصر الجديدة على حافة الصحراء ، وقنع من دنياه بذلك الراتب الضئيل الذي يتقاضاه من عمله في إحدى دور الحكومة ومن بعض الصحف ، نظير ما يقدم لها من بحوث أدبية واجتماعية .

وقد أشرف على الأربعين من عمره ، ولمع الشيب الباكر في عارضيه ، فبدا كأنه ابن الخمسين ... لفرط ما لقي في أيامه من إخفاق وخيبة وحرمان .

ضاقت الدنيا بآماله الكبار ، وأضناه اليأس والقنوط فغدا كالعقاب الهرم ، لا يقوى على النهوض ، وظل في عهده الأخير ساكناً لا يتحرك إلا بمقدار [illegible] الحياة .

اشتهر الأستاذ محمود — في أوساط الخدم — بأنه رجل طيب ، والرجل الطيب في عرف هؤلاء الشياطين هو الرجل « العبيط » الذي يسهل على كل خادم أن يغشه أو يسرقه ؛ وهم يطلقون عليه فيما بينهم اسم « الأفندي العازب » ، وهم في أكثر الأيام معارك دامية في التنافس على خدمته ، والحظوة عنده ، وكل خادم عاطل منهم يرشح نفسه لخدمته ، لأنه إن كان قد أخذ حظاً عنا في حلوق الكتب فهو لا يعرف ألفاً ولا باء في أسعار الفطائر والخضر واللحوم ، ولا يدري إن كانت « الكبيرة » تشوى على النار أو تسلق في الماء ، أو هي شيء غير هذا وذاك ، فإذا أخبره الخادم أن الأوقية منها — مع الإكرام — لا يقل ثمنها عن عشرين قرشاً صدقه ودفع له ما أراد ، وهو لذلك — ولأنه لا يكلف الخادم أكثر من إعداد الفطور صباحاً ووجبة الغداء ظهراً — يعتبر في نظرهم « مخدوم اللقطة » ، واشتد بينهم التنافس عليه ، حتى إنهم « يبيعونه » بعضهم بعضاً ، فقد يكون الخادم العاطل قد ادخر من أيام عمله قدراً من المال ، وعندئذ فهو يجود بهذا القدر كله راضياً ليحظى بخدمة الأستاذ محمود على أن يتخلى له من مكانه شهوراً معدودة ، وتدور المساومة على « بيع » الأستاذ محمود علناً في القهاوي البلدية التي يغشاها الخدم ليلاً ، وقد تنتهي بينهم « المزايدة » إلى معركة حامية تجرهم إلى مركز البوليس ، ويدون الضابط على لسان الضارب والمضروب وقائع الدعوى التي تدور كلها على بيع الأستاذ محمود أو شرائه !! كل ذلك يجري في القهاوي البلدية ويدون في محاضر البوليس ، ويصبح موضوع سمر الناس وتفكههم ، وصديقنا محمود غارق بين أمواج كتبه ونظرياته وبحوثه التي يطويها [illegible] أضعاف أضعافها في صفحات الحياة !! وأنه [illegible] من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هي : « إن الحياة مع [illegible] لا تطاق » .

[illegible] أشفق عليه من هذه الحياة التعسة التي [illegible] ، كالصحراء القاحلة لا ظل فيها ولا ماء . لكنه لم يكن هو يحس هذا الشقاء ، أو هو كان قد أحسه يوماً ، وجداً في أول أيام شبابه ، وما زال يحتمله بالرضى مرة وبالسخط مرة أخرى ، حتى ألف الهم واستساغه ، واستعذب الوحدة وشرب كأسها المريرة ، وأصبح كشارب الخمر يتداوى بها منها .

* * *

ولست أنسى ما حييت مساء يوم الخميس من شهر يناير عام ١٩٣٨ ، فقد كان مساء حالك الظلام عاصفاً ممطراً ، ثارت الطبيعة فيه ثورة جامحة هوجاء ، وانقلبت فيه أوضاع الأشياء في نظري ، حتى حسبت أن السماء غاضبة حانقة تقذف صواعقها على الأرض وساكنيها ، وأن كل شيء في الوجود قد تناولته الرجة من كل نواحيه ، فاضطرب السير ، وتعطلت الطرقات ، وخيمت عليها غياهب الوحشة والانقباض .

في هذا المساء الأسود العاصف كنت على باب صديقنا محمود ، بعد أن أدركني قصف السماء في طريقي إليه ، وبعد أن لقيت منه ما لقيت من مشقة وإعياء .

وسألت الخادم عن سيده فأجاب أنه لمّا يحضر بعد . وكان من الضروري أن أطلب من الخادم فتح الباب لأحتمي بدار صديقي من شآبيب المطر المدرار ، ولأجلس في انتظاره وأجفف ثيابي وأستدفئ بقدح من الشاي ؛ ولكن الخادم أطرق برأسه مليّاً ، ثم قال في خجل واستحياء : إن سيده يغلق الباب ويدعه خارج الدار طول اليوم حتى يحضر ، وكانت هذه الطريقة العجيبة موضوع دهش وغيظ معاً ، واستوضحت الخادم جليّة الأمر فعلمت منه أن الخادم الذي كان قبله في خدمة سيده كان قد اعتزم الزواج من فتاة أحبها ، ثم لم يجد مالاً يشتري به أثاث المنزل الزوجية الجديد ، فأحضر عربتين من عربات النقل ، وأوهم الجيران أن سيده كلفه بنقل الأثاث إلى منزل آخر ، ومر بهذا الأثاث إلى حيث لا يمكن العثور عليه ... ولم يجد الأستاذ ... إلا الكتب متناثرة في أرجاء الغرفة هنا وهناك ، وقد رأى الأستاذ محمود بعد ذلك أن لا حيلة مع هؤلاء الخدم اللصوص الجهلاء !!! إلا أن يغلق باب الدار كل يوم ، ويدع الخادم مع بواب العمارة المجاورة حتى يعود ظهراً ... ويدخل الخادم في ركاب سيده ليبدأ في تهيئة الطعام وتنظيف البيت ، وقد يترتب على هذا أن يظل الأستاذ محمود بدون غداء إلى ما بعد الساعة الرابعة ، فإذا خرج في المساء أخرج الخادم من البيت قبله ليظل في انتظاره حتى يعود ، وهكذا دواليك . في صديقنا محمود على هذا الحال أكثر من شهر كنت قد انقطعت في خلاله عن زيارته ، وكنت إلى هذا المساء الحالك الممطر لم أعرف من حادثه الأخير شيئاً ... وهممت بالانصراف راجعاً إلى داري بعد أن يئست من عودة الصديق محمود في مثل هذه الساعة من أول الليل ؛ لكني لم أكد أخطو نحو الطريق خطوات حتى لمحت شبحاً يقترب مني في الظلام ، وتبينت هذا الشبح القادم ، فماذا رأيت ؟ ...

ماذا أقول عما رأيت !!!

هذا هو الصديق محمود ، هو بنفسه ...

لكن ما هذه المشية العرجاء ؟ ...

وما هذه القبعة البيضاء التي ضمد بها رأسه ؟ ...

وما هذا الدم الذي يسيل من رأسه المشجوج على وجهه المعفر الملطخ بالأوحال ؟

ثم ما بال ثيابه ممزقة مبلولة ؟ ..

ثم ما هذا الذي يحمله في يده اليمنى ؟

وهذا الطربوش في يده اليسرى منتزع الزر مضعضعاً كأنه ضغط تحت عجلات ... وما هذه المادة الزلالية التي تسيل مما يحمله في يده اليسرى وتتساقط على ثيابه ؟ ...

وكثير من الكتب !!! الكتب أيضاً تطل من جيوبه محشورة مع المرقد والفلات ... هذا كله هو محمود ، محمود بعرجته وبطربوشه وثيابه الممزقة ، وكتبه وعلاته ، ...

... عليه ... من ! محمود !

وبحت بهمهة خافتة ، وألفاظاً تترنح في فمه متعثرة كأنها ضلت الطريق إلى الفضاء .. وكان يلهث ويتهالك في مشيه لفرط الألم والإعياء ، فأسندته إلى يدي ، وما زلت به حتى أجلسته على مقعد البواب ، ثم أسرعت إليه بكوب من الماء ، فشرب منه قليلاً ، ونضحت بالباقي وجهه ، وجلست إلى جانبه أرقب حديثه عن مصابه الذي أرى ! فما زال حتى استطاع الكلام ونادى خادمه ، ثم مد يده إلى جيبه يتفقد مفتاح الدار ليأمره بفتح الباب ، فلم يجده في جيبه . وكانت الكتب ... تزحم جيوبه ! ويده اليسرى مصابة بجرح بالغ فأشار إلى جيبه الآخر ، ورجاني أن أبحث فيه عن المفتاح فلم أجده أيضاً ، وإزاء ذلك قال لخادمه : اذهب مسرعاً إلى أقرب نجار وأحضره لفتح الباب .

قلت : وأين ذهب المفتاح ؟

قال : لا بد أن يكون قد وقع تحت عجلات الترام أثناء الحادث .

قلت : وما هو هذا الحادث ؟

فنظر إلى نظرة عاتبة نافية ، ثم قال : أفي الطريق ، وأنا في مثل هذا الحال تسألني عن مصابي ؟

قلت : معذرة فإن اللهفة دفعتني إلى هذا الفضول !!

* * *

كان النجار قد كسر الباب . وكنا قد دخلنا إلى غرفة الاستقبال ، فألفيناها على حال غير حالها الأول ، فهي الآن عبارة عن قليل من كراسي القش والخيزران ، وهي الآن عارية من فرشها التي كنت أراه فيها ، وهي أيضاً قد أصبحت عاطلة من صورها الجميلة التي كانت تحلى جدرانها وجوانبها ، ولم يبق من معالمها الأولى غير المكتب ! المكتب فقط هو الذي نجا من يد الخادم اللص المجهول الذي لم يدرك قيمة ما يحوى من كنوز الأدب [illegible] أو هي وحدها التي « زهد » فيها الخادم [illegible] جديرة برضى « محبوبته » التي حمل إليها كل أثاث سيده . ولعله لم يجد أن يحمل إلى محبوبته المرآة !! جنة الأستاذ الكبير التي رفعها كل شيء في هذا الوجود !! فتركها له ينعم بها في ظلال العلوم والفنون والآداب .

... أما صديقي محمود فقد كنت خلال هذه الخواطر التي طفيت برأسي أنظر إليه مشفقاً عليه رثياً لحاله . وكان هو أثناء ذلك يعالج خلع ثيابه فلا يقوى على خلعها ، ويحاول إخراج رجله الجريحة من سرواله فلا يستطيع لشدة الآلام كلما حاول تحريكها . وأعنته على خلع ثيابه حتى أوى إلى سريره . ورحت أرقب حديثه عما أصابه ، لكني كنت أخشى إيلامه إذا أنا طالبته بالكلام ، ولم تحرق إلى معرفة سر حادثه ...

... وأخيراً تكلم الصديق بعد صمته الطويل فقال :

— لعلك ترى أن الحالة المؤلمة التي أنا عليها الآن تستدعي أن أقول فأوجز ، ثم هي تستدعي من جهة أخرى أن تسمع في غير مزاح أو سخرية ...

ونظرت إليه مشفقاً فرأيت عينيه تشعان ببريق الحنق والغيظ والألم . واستولت على جسمه رعشة خفيفة تشبه الحموم ، فأخذتني عليه الرحمة ، ورثيت لحاله قبل أن أعرف من مصابه شيئاً ، واقتربت من سريره فتناولت يده بين يدي وهززتها في رفق وقلت له :

— أنت يا صديقي محمود أعرف الناس بما أكن لك من ولاء ووفاء . ولست أصدق حالك هذا بما يدعو إلى السخرية ، فكيف تسيء الظن بأخيك الذي يحبك من قلبه ويقدرك أجل تقدير !

فنظر إليّ نظرة دامعة ، ثم أطرق إطراقة حزينة وقال :

— لست أسيء بك الظن ، لكني أعرف مقدار ما ينطوي عليه حديثي في هذا المساء من وقائع تثير الضحك [illegible] والإشفاق . فصدقني قبل أن أحدثك أن [illegible] ، وأن تكون أخي الذي أعهده رحيماً [illegible] أن أكون كالمحب ، فتحرك في سريره حركة متخاذلة يحاول أن يمد رجله الوجعة في أنين وتألم ثم قال :

— كنت الآن منذ نصف ساعة فقط سليماً معافى من كل ما تراني عليه من رضوض وتهشم ودماء وأوحال . كنت عائداً إلى هنا أقف أمام مستشفى الجيش المصري في طريق مصر الجديدة أنتظر الترام الذي يقلني إلى داري ، ورأيت في الطريق تاجراً ريفياً من تجار البيض الذين يبيعونه بالجملة يركب حماراً ، وعلى جانبيه قفصان مملوءان بالبيض ، ومن خلفه زميل يسير على قدميه ويستحث الحمار على المشي ، ووقف الجميع أمامي ثم عرض عليّ أحدهم أن يبيعني « شروة » مهاودة الثمن ، وقد خطر لي في هذه اللحظة أن أساومه وأن أشتري منه عاجلاً من البيض لأكشف بذلك عن غش الخادم وخداعه فيما يشتري من الأشياء .

ذلك لأني بعد حادث السرقة في الشهر الماضي أي بعد أن حمل خادمي السابق كل أثاث منزلي ليكون «جهازاً» لعروسه، أقول إني بعد هذا الحادث قد فتحت عيني وانتبهت بعد طول الغفلة لأساليب الخدم، وخداعهم، وطول أيديهم.

وانتهت المساومة بيني وبين بائع البيض على أن يبيعني منه اثنتي عشرة بيضة بالقرش الواحد. ولا أكتمك أني فرحت بهذه الصفقة، وأسرفت فاشتريت منه ستين بيضة بخمسة قروش. وإذا علمت يا صديقي أن خادمي يحاسبني على كل خمس بيضات بقرش عرفت مقدار الخسارة الفادحة التي أتكبدها بسبب هؤلاء الخدم اللصوص الجهلاء!!

لم أجد في جيبي قروشاً فأعطيت أحد الرجلين جنيهاً صحيحاً وأشرت له على محل النقود المقابل لمحطة الترام وكلفته أن يذهب لإحضار «الفكة» مسرعاً قبل أن يصل الترام. ولم أكن أخشى أن يفر الرجل لأن زميله والحمار كانا لا يزالان بجانبي، ومعا— قيمة الجنيه فلا داعي للقلق!! وعاد الرجل مسرعاً فقدم لي البيض في «صرة» تكرم علي بها فوق البيعة بعد أن لاحظت عدم دقة! وبعد أن أصر على أن يكسر بيضة أمامي ليؤكد لي جودة الصنف، ثم أخذ يعد في يدي باقي الجنيه، وفي هذه اللحظة كان الترام قد وصل إلى المحطة وكانت الكتب...!! في إحدى يدي، والبيض في الأخرى، وصحف المساء تحت إبطي، والطقس مكفهر والبرد شديد قارس، والرعد والبرق يتجاوبان في ظلمة الليل، فلم أشأ أن أدع الترام يمر قبل أن أركب وأتخلص به من هذه البلايا فانتهرت الرجل وأمرته أن يضع الباقي جملة في جيبي الأيمن، وقفزت إلى الترام قبل أن يتحرك ثم جلست أتفقد النقود في جيبي بعد أن وضعت البيض والكتب والصحف إلى جانبي وعددت النقود فإذا هي سبعون قرشاً فقط. عندئذ علمت أن هذا الرجل الجاهل!! تغفلني في زحمة الترام والسوق في يده خمسة وعشرين قرشاً من مالي فوق ثمن البيض.

وكان الترام قد قطع شوطاً طويلاً فنهضت كالمجنون أحاول الوثوب «لألحق به»... ثم أقبض على عنقه وأضع رأسه الأعوج!! الفارغ في وحل الطريق، ونسيت «الصرة» كيف أثب بها؟ أو كيف أدعها في الترام.

وعندئذ التمعت في ذهني فكرة سريعة لماحة —ولست ممن تخذلهم الحوادث بعقولهم— فناديت الكمساري وكلفته أن يشيل «الصرة» ويودعها في آخر محطة عند الناظر، وقبل أن يفيق الكمساري من هذه المباغتة السريعة —والترام على أقصى سرعته— كنت قد قفزت إلى الأرض... ولكنني لم أوفق في هذه القفزة فسقطت على قرب من عجلات الترام، وكان الطريق منزلقاً... فالله هو الذي وقع عنها تداعيات كما ترى ولم أمت... ونهضت من سقطتي أكثر غيظاً، وأشد حنقاً على هذا الرجل اللئيم، ولم أحفل أول الأمر بما أصابني من رضوض وجراح، ولم أكن أريد إلا أن أدركه فأمثل به أشنع تمثيل... وأخذت أعدو هنا وهناك، في الطريق المظلم الموحش الموصل إلى المحطة، وفي الطريق الآخر الموصل إلى كوبري الليمون. وكنت خلال ذلك أسأل كل من ألقاه في الطريق — وأنا ألهث في إعياء واضطراب — عن رجلين يركب أحدهما حماراً والثاني يسير بجانبه، وكأن سؤالي هذا كان شيئاً يضحك الناس، فلا أحظى عليه بغير الضحكات والاستهزاء...

وأحسست بالآلام وبالإعياء، ومددت يدي إلى جبيني أمسح بها العرق المتصبب منه، فإذا الدم ينفجر من رأسي ويسيل على وجهي وعنقي وأذني، والتفتت عروق قدمي ولم أعد أقوى على المشي، وتحسستها فإذا هي الأخرى قد أصابها السقوط بأوسع مما أصاب رأسي، ونظرت إلى ملابسي فألفيتها ممزقة والأوحال والدماء تلطخها، وكانت لناظري جسامة الحادث وبشاعة نتائجه! فعدت إلى محطة الترام أجر نفسي جراً... ومازلت حتى وصلت إلى المحطة المشؤومة. وجاء الترام الثاني فتواريت في ركن من المركبة

حتى لا يراني أحد متلبساً في هذه الحال المزرية المضحكة. ووصلت إلى آخر الحيلة فسألت منه «سرة البيض»، وكان أكثره قد تكسر، فعدت به إلى المنزل حيث ألقيته على بابه.

* * *

ولم يكد صديقي محمود يفرغ من قصته حتى كنت قد أوشكت أن أنفجر ضاحكاً وباكياً !!

ونظر إلى صديقي الشاعر في مزيج من الحزن والألم. ثم انفرجت أسارير وجهه قليلاً. ونادى خادمه الصبي الجاهل !!! فلم يشأ أن يدعه دون أن يكشف له عن سرقاته المتعددة من ثمن الحاجيات. وأراد أن يضرب له مثلاً بالبيض — رمز الذي حدث !! — فقال له في حدة وغضب:

هل ظننتني مغفلاً أيها العبد الوضيع حين [illegible] أسس على ثمن البيض بسعر خمس بيضات بالقرش؟ [illegible] عندك في «الصرة» بيض طازج قد [illegible] بالقرش الواحد. اذهب إلى المطبخ و[illegible] منه، وستعيد الباقي بعد ذلك أرخص وأحسن مما اشتريت. ثم أسرع بإعداد جانب منه للعشاء.

ذهب الخادم مطرقاً لا يدري ما يقول، ثم عاد بعد قليل يحمل في يده طبقاً كبيراً مملوءاً بالبيض وباسكاً كبيت تحوم في رائحته، وقال لسيده في عبارة مزعومة متكبرة:

— ليس هذا البيض للأكل يا سيدي !! إنه من نفاية بيض معامل الفراخ.

أما سيدنا العالم الجليل الأستاذ محمود فقد تجهم وجهه، واضطربت أنامله، وانكمشت أساريره لهذه المفاجأة الجديدة !! وراح يرغي ويتململ ثم انسعت حدقتاه، وبدت عليه علائم التفكير العميق، كأنه اعتزم أمراً خطيراً !

ونهض من سريره عابساً صامتاً لا يتكلم. ثم أخذ يلبس ثياباً أخرى غير الثياب المرقعة، وجعل يسوي هندامه ويبالغ في أناقته. ونسي آلامه وجراحه، وتناول زجاجة العطر فأفرغ منها في شعره، ولبس طربوشاً آخر فأحكم وضعه فوق رأسه. ثم نادى خادمه الصبي الجاهل !! فأمره في عزم وصرامة أن يحمل جميع كتبه، وأن يقذف بها إلى أوحال الطريق ...

... والتفت إلي بعد أن هدأت وأفاق من هذه المفاجأة الأخيرة ... فقلت دهشاً:

— إلى أين تمضي في مثل هذه الساعة ؟

فنظر نظرة عاتبة، ثم قال:

— أفر من هذا الجحيم ...

قلت:

— ولكن إلى أين ؟

فقال:

— إلى الجحيم !

قلت:

— وأي جحيم تعني ؟ أمن جحيم إلى جحيم ؟

[illegible] رفع رأسه وآثار الغضب لا تزال عالقة [illegible] بيده وهو يقلبه، ثم قال:

— إلى جحيم المرأة ... إنه جحيم ... لكنه جحيم يطاق ...

قلت:

— وأين هي المرأة الآن ؟

فقال:

— هي ها هنا قريبة من داري وهي ابنة جيراني في هذا المنزل القريب منا، هي فتاة مهذبة بارعة الجمال أرسل إلي أهلها منذ عامين يلحون بالزواج، إنها ومثيلاتها كثيرات سيرحمنني من جنون الكتب ... ها أنذا أذهب إليها الآن، وفي مثل هذه الساعة أطرق بابها وأطلب يدها ...

* * *

.... ثم انقشعت غياهب الليل، وهبت العاصفة، واختفت الغيوم، وأشرق الصباح عن وجه باسم جميل.

عبد الله حبيب

هو وهي

للآنسة قدرية كامل

إلى قمة الجبل يريد أن يصعد ،
ووقف عند السفح ينظر إلى أعلى ،
فدارت به الأرض
وأغمض عينيه
ومد يده يتحسس ،
فتشبث بحجر وأراد الصعود ،
ولكن الحجر تزحزح وكاد يهوى ،
فتراجع مذعوراً ،
وجال بعينيه فرأى ممراً ،
ومشى إلى الطريق الأخضر [illegible]
وخطا خطوة ،
ولكنه تراجع مذعوراً
وصاح :
— أشواك أشواك .
وجال بعينيه
فرأى طريقاً مستوياً ،
فجرى إليه فرحاً
وصعد
ووصل إلى منتصف الجبل
ووقف يتنفس الصعداء ،
فانزلق
ووجد نفسه عند سفح الجبل !
ووقف ينظر إلى الجبل في يأس ،
ولكن ما زال في عينيه بريق من أمل
ورأته الفتاة ،
فمشت إليه ، وقد اعتزمت أمراً .

قالت : أتصعد الجبل ؟
نظر إليها في إشفاق ،
وقال : ما أسخفك يا فتاتي !
أتستطيعين صعود هذا الجبل الوعر ؟
أتخشى أن أصرح لك بأني قد فشلت .
فضحكت ، وقالت : أهذا الجبل وعر ؟
إنه سهل سهل ،
قال : وهذه الحجارة المتدفقة ؟
قالت : إنها تثبت تحت يديك القويتين .
قال : وهذه الأشواك ؟
قالت : إنها تحترق بحرارة شبابك الملتهب
قال : وهذا الطريق الأملس الزلق ؟
قالت : إن آثار قدميك تحفر لك طريقاً .
قال : ما أسهل الصعود !!
قالت : ها أنا [illegible] سأغني لك .
[illegible] .
[illegible] أهل ؟
هيا إلى الجبل ،
هيا إلى القمة ،
هيا أتبع خطاك ،
إن الله أعطانا عيوناً ترى ،
وقلوباً تشعر ،
وعقولاً تفكر ،
هيـــا . . .
ووصلا إلى قمة الجبل ،
ونظر إلى الكون من عل ؛
فشعر بهذه القوة الجديدة التي تسري في بدنه ،
فقال للفتاة : « أي قوة أنت وأي سحر ؟ »
« هيا يا فاتنتي تقدميني في الهبوط »
قالت : « لا أستطيع »
« في الصعود كنت أصعد وأنت ورائي »

أنباء وآراء

حفلة تأبين الأستاذ الهراوي

تقام في القاهرة حفلة تأبين الفقيد الشعر العربي المرحوم الأستاذ محمد الهراوي في يوم الأحد الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ . ومجلة الثقافة تشارك بقلبها في تكريم ذكرى صديق وفيّ ، كما تساهم في تقدير شاعر أديب ، خدم اللغة والأدب خدمات جليلة ، ونحج فيهما طريقاً جديدة لتقريب مواردهما لصغار الأبناء .

وقد نشرنا في صفحة الشعر قصيدة في رثائه لصديقنا الأستاذ أحمد الزين ، وسنتكلم من الأستاذ على ذلك في هذا العدد ، ولنا بعدُ عودة إلى وصف الحفل في عدد تال إن شاء الله .

المجلس الشرقي Oriental Assemply

هو الاسم الذي اختارته دار وليامز ونورجيت لتلك المجموعة التي تصدرها قريباً من كتابات (ت . ا . لورنس) الذي يعرفه الانجليز باسم « ملك العرب غير المتوج » .

وهذه المجموعة تحتوي على مذكرات لورنس عن رحلته الثانية إلى شمال سوريا في سنة ١٩١٨ للتوسع في دراسته عن الصليبين ولجمع بعض الآثار ، وهي التي يحتفظ بها متحف « أشموليان » بأكسفورد الآن .

أما الجزء الآخر من هذه المجموعة فهو أحاديث خاصة كتبها لورنس عن بعض الشخصيات العربية ، ومقالات أخرى لم ينشرها ، أو نشرها مقتضبة في كتابه

« قوة تسير ، تجذبك إلى أعلى »

« فإن زلت تحميني »

« والآن أصبحت أنت قوة »

« فإن أنا تمسكتك »

« وقد أرتني فأنهشم »

« فمن يحميني ؟ »

« سأعلو الجانب الآخر من الجبل طريق »

وهمت بتركي ،

فتشبثت بها ،

وقال : « هاك ساعدي يحملانك »

فتراجعت مذعورة ،

وقالت : « دعني ! »

قال : « ماذا ؟ ماذا بي ؟ »

قالت : « شخصان صعدا الجبل »

« أتريد أن يهبطه شخص واحد ؟ »

قال : « بل شخصان ، أنت وأنا »

« نحن »

قالت : « يا سائحي »

إن أنت حتى شخص واحد يهبط الجبل

« هو أنت »

« فدعني أهبط الجانب الآخر لأحتفظ بشخصيتي »

وتركته ؛

وأخذت تهبط الجبل في سكون

فتحية كامل

« سيمة أحمد بمحكمة » . هذا عدة صور ترد على المسألة ومنها لبعض المناظر والحوادث الهامة أثناء الثورة الفرنسية .

الإنكليز في نظر الفرنسيين

كتب أندريه موروا مقالاً عن الأدب الإنكليزي في نظر الفرنسيين ، فذكر العقبات التي تعترض نقل الآثار الأدبية الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية ، وأولها الأسلوب ، قائلاً : إن الجملة الجيدة ، والشعر المتناسق ، وكلاهما يعتمد على جرس الكلمات واتساق مقاطع الجزء ، واختيار التعبيرات المتناسبة ، كل ذلك يختفي في الترجمة . ولما كان الشاعر عظيماً كان من الصعب نقل ما في شعره من عبقرية . وهو يمثل لذلك بما نلاحظه من غموض كيتس وشلي وسوينبرن عند غالبية الفرنسيين وعدم معرفة الرأي العام الفرنسي لهم .

أما العقبة الثانية فهي تتعلق بأخلاق الشعب الإنجليزي والشعب الفرنسي ، فبينما يحتاج القارئ الإنجليزي إلى الفكاهة المرحة ويسر لها ، لأنه [illegible] الحقائق بما فيها من مرارة ، يحتاج القارئ الفرنسي [illegible] ولع بأن يسمع الحقيقة القاسية ويستمتع بالأحكام [illegible] ولذلك لا يسيغ القارئ الفرنسي كثيراً من الآثار الأدبية الإنجليزية كآثار جان أستن ، بالقدر الذي يسيغ به آثار دستوفسكي مثلاً .

ويرى أندريه موروا أن حتى الأدباء الإنجليز الذين استلهموا الوحي الفرنسي لا يحظون بعناية في فرنسا ، وضرب المثل بشوسر chaucer الذي لا يعرفه كثير من القراء الفرنسيين . أما الأدباء الإنجليز الذين تقرأ آثارهم في فرنسا فهم كبلنج وستيفنسون (روبرت لويس) وكونراد ، وذلك يرجع لأنهم يرضون ذوق الشبيبة الفرنسية التي تميل إلى الروايات التي تتحدث عن المغامرات ، ولا تجد عند دوماس وجول فرن كفايتها .

على أن الصداقة بين الشعبين الفرنسي والإنجليزي ، التي تزداد وثوقاً في الأيام الأخيرة ، تقرب الأدب الإنكليزي إلى حد بعيد من الفرنسيين ، وتدفع القارئ الفرنسي إلى الاتجاه نحو الأدب الإنكليزي ومحاولة استساغة آثاره ، برغم كل هذه العقبات ، ولو من سبيل المجاملة المحضة ...

القصة في الأدب الحديث

يتهم السير هيو والبول ، وهو من الكتاب الإنجليز المعاصرين ، القصة الحديثة بأنها هزيلة لن يقدر لها الخلود ، فهي لا تخلق الشخصيات التي تعيش مع القراء ويعرفونها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل ، ولا تحوي الحكاية المشوقة التي يتناقلها الناس وتتداولها الشعوب ، كالحكايات دون كيشوت أو دافيد كوبرفيلد .

وهو يعلل ذلك بأن كتاب القصة في الأدب الحديث يفرضون أنفسهم فرضاً على كل ما يكتبون ، ولا يبتكرون شخصيات مستقلة [illegible] تماماً لأخلاقهم ، بل إن ذكاءهم ومعارفهم ما يبرز في كل أعمالهم . فالأفكار هي أهم شيء [illegible] الشخصيات فليست إلا أنابيب زجاجية [illegible] علم النفس خاصة والعلوم الحديثة بوجه عام ، وبذلك أصبحت القصة إلى حد ما شيئاً مجرداً لا من فيه ولا خلق ، كل محتوياته آراء تستند على العلم الرمزي المتغير ، ذلك العلم الذي يسبغ بعضه بعضاً يوماً بعد يوم ، ويأخذ في سبيله هذه القصص التي يقوم كيانها عليه .

أما القصة الصحيحة فهي في نظر سير والبول التي تخلق عالماً قائماً بذاته من الشخصيات ، مستقلاً عن المؤلف استقلالاً يشبه ذلك الاستقلال الذي بيننا نحن البشر وبين الخالق .

ومن الأمثلة التي يضربها لذلك قصص ألدوس هكسلي و د . هـ . لورنس وفرجينيا وولف وجويس . فهي كما يقول لا تدل إلا على شيء واحد ، وذكاء خارق جبار مصدره رأس يزخر بالمعرفة . أما شخصياتها فهي ظلال [illegible] ما تلتقي بالأمثلة القصة ، ولا تخلف إلا بصمة أفكار لامعة تنتظر مصيرها المحتوم على يد « فرويد » آخر يهدمها !

حتى عوالم ولز السحرية المليئة بالغرائب لن يعيش منها بطل واحد، لأنها وضعت على أساس من العمليات الرياضية الدقيقة، إن آمن بها العقل فلن يؤمن بها قانون القاعدات، ولن يؤمن بها القراء أو يعرفوها بسهولة، ولن يعيشوا معها كما يعيشون مع سانتكويارا، وبيكى شارب ووتس، ودافيد كوبرفيلد، تلك الشخصيات التي خلقها ثاكرى وديكنز وهاردى وأضرابهم، واستطاعوا أن يحركوها حركات إنسانية بسيطة متصلة بالنفس الإنسانية عامة أكثر من اتصالها بالعالم الزمني المتغير.

وهو يرى — أخيرا — أن الوقت قد فات على كبار كتاب القصة، فهو يوجه كلامه إلى الناشئين داعيا إياهم بأن يخرجوا من دائرة نفوسهم، ويتجهوا نحو القصة الضخمة فلا يجعلوا شخصياتهم مثال أعمالهم، بل يجعلوا أعمالهم [illegible] عوالم جديدة ومخلوقات يستلهمونها من الحياة البشرية النبيلة، يدفعونها بها إلى هذه العوالم [illegible] هو العلم الذي لا يكف عن [illegible] التعب والمواهب.

آثار أدبية

عرضت أخيرا في مزاد أقيم في لندن، لبيع مكتبة السير لستر هارمسورث، نسخة من الطبعة الأولى من أحد مؤلفات ديفو يرجع تاريخ طبعها إلى سنة ١٧٣٦، فبيعت بمبلغ ١٤٠ جنيها.

وفي نفس المزاد عرضت نسخة من الطبعة الأولى لأحد دواوين الشاعر وليام كولنز من الأشعار الزهرية، يرجع تاريخ طبعها إلى سنة ١٧٤٦، فبيعت أيضا بمبلغ ١٤٠ جنيها.

ومما يذكر أن هذه الطبعة من ديوان كولنز كان قد أصدرها في سن الخامسة والعشرين، وكان قد هجر الكلية وجاء إلى لندن ليتعيش من قلمه؛ ولما أصدر هذا الديوان كان أحد أصدقائه (جوزيف وارتون) قد أصدر ديوانه أيضا، فراج أكثر من رواج ديوان كولنز، مما أثار غضب هذا الأخير وجعله يجمع الباقي من نسخ ديوانه ويحرقها حتى أدى ذلك إلى ندرة النسخ الموجودة من هذه الطبعة.

رأي ولز في توحيد العالم

دعا هـ. ج. ولز في أحد كتبه الجديدة إلى إقامة «حكومة عالمية» تذوب فيها الشعوب والأمم، ولا يدين فيها الأفراد بالحب لوطن معين، كإنجلترا بالنسبة للإنجليزي مثلا، وإنما يصبح فيها الأفراد مواطنين في أمة كبرى هي العالم بأسره، لا يعرفون غيره وطنا.

وقد قال ولز بأن سبب الاضطراب الذي يسود العالم اليوم هو هذا التعصب الأعمى للقوميات، والأغاني الوطنية [illegible] ولا رعاية للإنسانية كلها، حتى إن [illegible] الوطنية فضيلة عند أفراده إذا تمسكوا بها وأشربوا حبها، ورذيلة عند الغير إذا حرصوا عليها ودافعوا عن أوطانهم. فالحل الوحيد لسلام العالم هو إلغاء الأوطان والشعوب، وإحلال «اللاقومية» محلها في ظل حكومة عالمية.

وقد رد الأستاذ روبرت لند في مقال نشره بمجلة «جون أو لندن» تحت عنوان «رذيلة الوطنية»، فأشار إلى ما كان يدعو إليه دانزيو شاعر إيطاليا الراحل من التعصب للوطن، أو «الأنانية المقدسة» حيث لا يؤمن الفرد إلا بوطنه ويحتقر ما عداه من أوطان الآخرين، فقال إن الوطنية تتحول بمثل هذه الدعوة إلى رذيلة، كما تتحول فضيلة احترام النفس إلى رذيلة عندما تصبح كبرياء وتعاليا على الغير، ولا تصبح وطنية مهما زينها أمثال دانزيو بالألفاظ الضخمة كالتقديس، وإنما هي رذيلة بحتة قوامها الطمع والشره مما لا تعرفه الوطنية التي تقوم على حب

الوطني واحترام أوطان الغير . وعلى ذلك فهو يرى أن الوطنية ليست هي السبب في مشاكل العالم الحاضرة ، كما يرى ويلز ، إنما هو مجرد الطمع والرغبة في التسلط والاغتصاب .

أما إلغاء الشعوب والقوميات ، فإن الكاتب يراه مستحيلا ، لأن الشعوب لا تمحى ولا تزول ، وهو يستند إلى التاريخ الذي يؤيده فيما ضرب من الأمثلة بإرلندة وبولندة ومصر ، فإن كلا منها قد صمد لشكل التجارب من الاضطهاد والفقر إلى التقسيم ومحو اللغة ، ويشير في دقة إلى إيطاليا نفسها التي زعم أحد ساسة النمسا غداة ثورة استقلالها أنها : « ليست شيئا وإنما مجرد اصطلاح جغرافي » ومع ذلك فقد باتت إيطاليا شيئا له طابعه إلى اليوم . ثم يتساءل : « ألا تقوم هذه الوحدة العالمية كما يريدها ويلز إلى جانب الوحدات القومية جنبا إلى جنب ، وليس تضاد بين التعاون ... والاستقلال القومي لكل شعب على حدة ! » .

إن السبيل إلى السلام

ليس هو إلغاء القوميات والاعتقاد بأن الوطنية رذيلة ، وإنما هو تنقية الوطنية وإبعادها عن فكرة الأنانية ، والإيمان بأن الاعتداء على الغير شيء ، والوطنية شيء آخر .

كتاب عن الأمير فخر الدين بن معن

حركة الأمير فخر الدين بن معن في لبنان تكون حلقة هامة من حلقات تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ومثلها في ذلك مثل حركات علي بك الكبير ومحمد علي باشا في مصر ، وحركة سليمان باشا في العراق ؛ فهذه الحركات كلها تدل على يقظة الشعوب الإسلامية وسعيها للاستقلال عن الدولة العثمانية ، وإنشاء دول جديدة على الأنظمة الغربية .

بيد أن الأمير فخر الدين يكاد يكون أشد من علي بك الكبير أو سليمان باشا تعلقا بالغرب وأممه ، إذ كان له فهم طيب للحضارة الأوربية الحديثة ، ورغبة ملحة في الأخذ بأساليبها ، وقد ثار على السلطان مراد واعتصم منه بجبال لبنان ، ولقيت حركته عطف الكثير من الدويلات الإيطالية مثل فلورنسة لأنه ارتد عن الدرزية إلى النصرانية ، فأخذت حركته لونا دينيا ، وقد شد الأمير الثائر رحاله إلى فلورنسة ليتحقق من عون أهلها ، فلقي ما أرضى نفسه من إكرام الوفادة ، وسجل خواطره في مذكرات من أمتع وأنفس ما تحويه المكتبة ... من آراء الشرقيين في الحضارة ... الأولى .

وفخر الدين تفاوت من عبقرية محمد علي وحسن تقديره للحضارة الأوربية ، وبعد نظره في السياسة وتصريف الأمور ، ولو قد وجد شيئا من المعاونة الجدية لأفلح في حركته ، ولكن فلورنسة لم تصدق وعدها ، فبادره مراد الرابع بالقمع الشديد وقضى عليه ؛ والكتاب الذي نحن بصدده L'Amir à la Croix لمؤلفته السيدة جان أرقش اللبنانية يصور هذا كله في قالب روائي لطيف قد لا يخلو من الإغراق من الدقة التاريخية بين الحين والحين .

صاحب المجلة ومديرها
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١٠ مليم

فى عالم التأليف

مصر بين الاحتلال والثورة :

تأليف الأستاذ صلاح الدين ذهنى — وهو كتاب أدبى اجتماعى تعرض فيه لفن القصة فى الأدب المصرى الحديث، فى عهد الاحتلال، والأدب منذ ثورة سنة ١٩١٩، وبين العهدين. وقد اختار كتابين يمثلان العهدين، وهما «حديث عيسى بن هشام» و«عودة الروح»، واستغل منهما روح العصرين وحللهما ونقدهما. وقد قدمه الأستاذ «أمين» بمقدمة لطيفة أظهر فيها إعجابه بالكتاب وموضوعه، وأخذ عليه نزعته للتحليل والاستطراد والملاحظة، حتى لا يستطيع القارئ [illegible] والناقد، كما أخذ عليه أنه تأثر بأساليب [illegible] اختيار الصحيح والفصيح فى بلاغة التعبير.

وهو يقع فى ١٧٦ ص من القطع الصغير، ونشرته مكتبة الشرق الإسلامية بالقاهرة.

مجلة الحديث :

أصدرت مجلة الحديث الغراء التى تصدر فى حلب عدداً ممتازاً فى شهر ابريل من هذا العام خاصاً ببحث للدكتور اسماعيل أدهم عن الأستاذ توفيق الحكيم، درسه فيه دراسة تحليلية على النمط الذى سار عليه الغربيون، تكلم فيه أولاً عن الفن القصصى والمسرحى فى الأدب العربى الحديث، ثم تكلم عن حياة «توفيق الحكيم» وشخصيته وأعماله الأدبية وآرائه، ثم فحص سر حياته وقصصه.

وقد نشرت المجلة عدداً خاصاً كهذا فى ابريل الماضى عن الدكتور طه حسين بك.

وفى هذه الأبحاث يلم الكاتب بأطراف الموضوع، ويحلل من يكتب عنه تحليلاً تفصيلياً دقيقاً.

حياة الرافعى :

للأستاذ محمد سعيد العريان — ذكر فيه مؤلفه حياة الأديب المعروف (مصطفى صادق الرافعى)، وبدء حياته بالشعر وتحوله من الشعر إلى الكتابة، وكتبه التى ألفها، وعمله فى النقد، ومقالاته فى مجلة «الرسالة» الخ، وهو فى كل ذلك يكتب عن علم ودرس، وقد أتيح له قربه من الرافعى وشدة اتصاله به أن يعرف دقائق حياته، ويعرف الظروف الخاصة التى كتب فيها كتبه ومقالاته، فشرح ذلك كله [illegible] بأسلوب فنى قوى واضح، فكان من ذلك كله مؤلف يعد مثلاً لتحليل الكتاب المعاصرين.

وهو يقع فى ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط، وقد طبع بمطبعة الرسالة بمصر.

على فراش الموت :

للأستاذ طاهر الطناحى — وهو كما يدل عليه اسمه يتعلق بالموت وما يتصل به، فيتكلم فى الموت عند الشعوب، ولماذا نخاف الموت، ومآسى طائفة من أعلام الشرق فى العصر الحديث، وما يحيط بكل مأساة من حوادث تاريخية، وطرائف أدبية، كالخديو اسماعيل، والملك فؤاد الأول، والشيخ محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، وفيه فصل عن «مهازل الموت». وهو يقع فى نحو ١٨٠ ص. وقد صدره الدكتور مصطفى فهمى ببحث عن «العلم والموت».

وقد عنيت بنشره «دار الهلال بمصر» سنة ١٩٣٩.

تاريخ التعليم في عصر محمد علي:

للأستاذ أحمد عزت عبد الكريم — كتاب ضخم عن التعليم في مصر في عهد محمد علي، تكلم فيه عن التعليم قبل محمد علي وما أدخله محمد علي من نظم، والأثر الغربي في النظام التعليمي في مصر، وتطور هذا النظام وما تطور في درجات التعليم المختلفة من تعليم ابتدائي وتجهيزي، والتعليم الخصوصي والبعوث العلمية، كما تكلم عن الحياة المدرسية ونظم الدراسة ومدارس الطوائف والجاليات الأجنبية بمصر في عهد محمد علي.

وقد قدم الكتاب الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كلية الآداب بمقدمة في الحركة التعليمية في عهد محمد علي وبحوث الباحثين فيها. وذكر أن قيمة هذا الكتاب في أن مؤلفه كان رائده توخي الحقيقة الخالصة، [illegible] دراسة سنين عديدة في المخطوطات و[illegible] ٨٠٠ ص، وقد نشرته مكتبة النهضة المصرية.

وفي هذا الموضوع ألف الأستاذ دن (Heyworth-Dunne) مدرس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية كتابا اسمه المدخل في تاريخ التعليم في مصر الحديثة، باللغة الإنجليزية[١] قدمه بمقدمة في نظم التعليم في مصر الحديثة، ثم نفوذ الثقافة الغربية في مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٨، ثم التعليم في عهد عباس الأول، ثم في عهد سعيد، ثم في عهد إسماعيل، ثم في عهد توفيق.

وقد ذكر المؤلف أنه سيوالي متابعة الأجزاء في الوقت الحاضر. وقد ذيله بفهارس عدة مستوفاة وقد نشرته مكتبة (Luzac) بلندن.

(١) اسم الكتاب: An Introduction to the History of Education in modern Egypt.

أسواق العرب في الجاهلية والإسلام:

تأليف الأستاذ سعيد الأفغاني، بحث فيه عن تجارة العرب قديما وطرق المواصلات في جزيرة العرب، ومكانة قريش في التجارة وحلف الفضول، ثم تكلم عن أسواق العرب في الجاهلية سوقا سوقا وأهمها سوق عكاظ، وحقق ما ورد في هذه الأسواق من مواقف العرب قديما وحديثا، ثم أسواق العرب في الإسلام وأهمها المربد، وقد استوفى الكلام فيها كلها استيفاء حسنا، وأتبعه بفهارس وافية.

وهو يقع في نحو ٤٧٠ ص، وقد طبع طبعا متقنا على ورق جميل، وقد نشرته المكتبة الهاشمية بدمشق.

مختصر تاريخ العرب:

هو كتاب السيد أمير علي الكاتب الهندي المعروف، [illegible] المدنية العربية من أرقى الحضارات، وأن [illegible] في هدم [illegible] الإمبراطورية [illegible] أن تاريخهم لا يدرسه في أوربا إلا المستشرقون والمتخصصون، فأراد أن يضع كتابا يشرح فيه حالة الشعب العربي الاجتماعية وتطوره الاقتصادي والسياسي والخلقي، وغرضه من ذلك أن يزيل أثر التعصب على العرب من الغربيين، فكتب في ذلك هذا الكتاب في تاريخ العرب من مبدأ ظهور الإسلام إلى آخر العصر العباسي، كما كتب في تاريخ العرب في إسبانيا وتاريخ العرب في أفريقيا، وكان يتبع كل فصل بالمعيشة الاجتماعية وحركة العلم والحالة الاقتصادية والصناعية ونحو ذلك.

وقد ألفه بالإنجليزية وسماه A Short History of the Saracens وقد نقله حديثا إلى اللغة العربية الأستاذ رياض رأفت من بغداد، وعلق عليه تعليقات مفيدة، وطبعته مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويقع في نحو ٥٢٠ ص.